بعيداً في الصمت قريباً في النسيان



علي الجندي

الكلمة

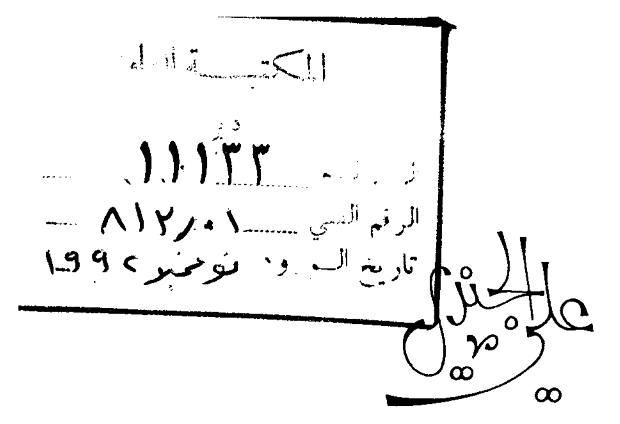
دار الكلمة للنشر

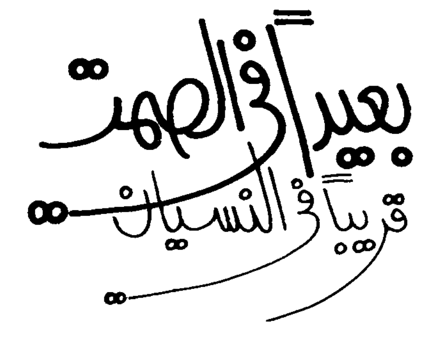
الغلاف : يوسف عبد لكي

رسوم : بشـــار

دار الكلمة للنشر ش.م.م
شارع ليون - بناية سلام - الحمراء
بيروت - لبنان
ص.ب ١٣/٥٢٨٨
تليفون ٨٠٣٧٤٠

الطبعة الأولى ١٩٨١





الكلمة

دار الكلمة للنشر

علي الجندي

أول حرف من اسمه الوطن

•

ممدوح عدوان



لم يبق إلا المزاح
وقليل من الضحك المكرور .
أحدد صديقي أولاً
والبكاء في المرة القادمة :
كدمعة ملفوفة في كيس شفاف
معلق على أهدابنا
لا يسقط ولا يجف
ولا يسمح لنا أن نذرفه
وحتى بعد أن نتخلص منه
يظل كالحزن بعد البكاء
وكصداع السكْر بعد القيء .

مضجر
لا يكلمني في السياسة
يقول لي دائماً : أهذا وقتك ؟
ويقول : أهذا وقتك ؟
للصباح
وللموت أيضاً .

لكنني أعرف ألمه
حين يقرع كأسي
ويبتسم داخل كيسه الشفاف .

لغز مكشوف لا يحله أحد
وهو سادر
يحلل الحرام
ويحلل الألم إلى عناصره الأولية
ويفرده في الذاكرة
كؤوساً ، ونساء وخيبات
وجرعة من الحنان المكابر .

ذلك الرجل الذي يعصف به الشوق للرحيل
وقدماه مقيدتان إلى التراب
يتكىء على وجعه
ويسافر شعراً
ودائماً يصل إلى أصدقائه
المقتولين أو المسجونين .

بخبث أبيض
تمنيت لو أنه يموت قليلاً
لأعرف كيف سيكون غيابه
وكيف تخلو الحياة منه .

لكنها أمنية صعبة
فليس هناك موت قليل .

وقد علمتنا المدن المحتلة في الهزائم
وخيبات الشيخوخة المبكرة
ان الأشياء الجميلة
لا تعود أبداً إن ذهبت .

ويزول الخاطر سريعاً
حينما يضحك وكأنه يتدحرج
ثم يسترد أنفاسه
بتنهيدة تعبر جسده
وكأنها صاعدة من كعبه .

جسده الكبير يشيخ
لكنه لا يترهل
لأن عروقه مسكونة
بمدن محتلة
ونساء لم يصل إليهن
بأكثر من الكلام
وبجثث شباب عرفهم جيداً قبل الحرب .

كل ما حوله ينابيع
ترسّب فيه الأحقاد
وتسرب إليه الناس والهزائم
وغبار المدن
التي كانت وطناً جميلاً .

حتى الهواء الذي يلامس التجار

وحديثي النعمة
والنجومَ التي تلمع كالذهب
على أكتاف جنود احتلال
بملابس وطنية ـ
كان يصيبه بالزكام
أو يصيبه ـ كما يقول ـ
بالأليرجي .

مسكين .
كم كان يتعب
لكي يغطي الدمامل
التي يسببها هذا الهواء القذر .

لم يعرف أحدٌ
كيف يغضب بحراً
ومتى ينصاع ماءً ،
يظل دائماً كميناً
من الحب والألم والشتائم
وكميناً من الشهوات
يتربص بأي شكل أنثوي .

عالم غادر :
الشهداء ، كلهم ، يموتون
ليشعروه بضآلة حياته .

والصغار، كلهم، يشبّون

ليشعـروه باقتـراب نهايته
والنساء ، كلهن ، يعشقن ويتزوجن
ليشعرنه بأنه لا يملك شيئاً
رغم التفتح الدائم في مسامّه
كلما سمع أخبار الأرامل
في الحارة المجاورة
أو القارة المجاورة
أو التاريخ السحيق .
ولذلك فإنه يصدر تنهيدة أخرى
تخرج من كعبه .

تعال يا صديقي
سنسكر لكي نغتاب
ثم نتشاجر
وغداً صباحاً
يجب أن نلتقي بصفاء
في هذا الغيتو
المخصص لنا
وللشرف .

وإلا . . . .
فمع من سنسكر ونتشاجر ؟!
ومن سيسمع قصيدتين بكأس عرق ؟!
ومع من سنحقد على هذه الأوبئة ؟!
ومن غيرنا يدفع خلوَّ رِجل

لمطلع شعري مثل :
« بغتة . .
يهبط الحزن مثل الضباب » ؟!
وعمن سيكتبون تقاريرهم ؟!

ماذا نفعل يا صديقي
ونساء العالم يرتكبن خياناتهن لنا
مع أزواجهن وعشاقهن ؟

ماذا نفعل
والخيانة في الكأس والهواء والضوء ؟

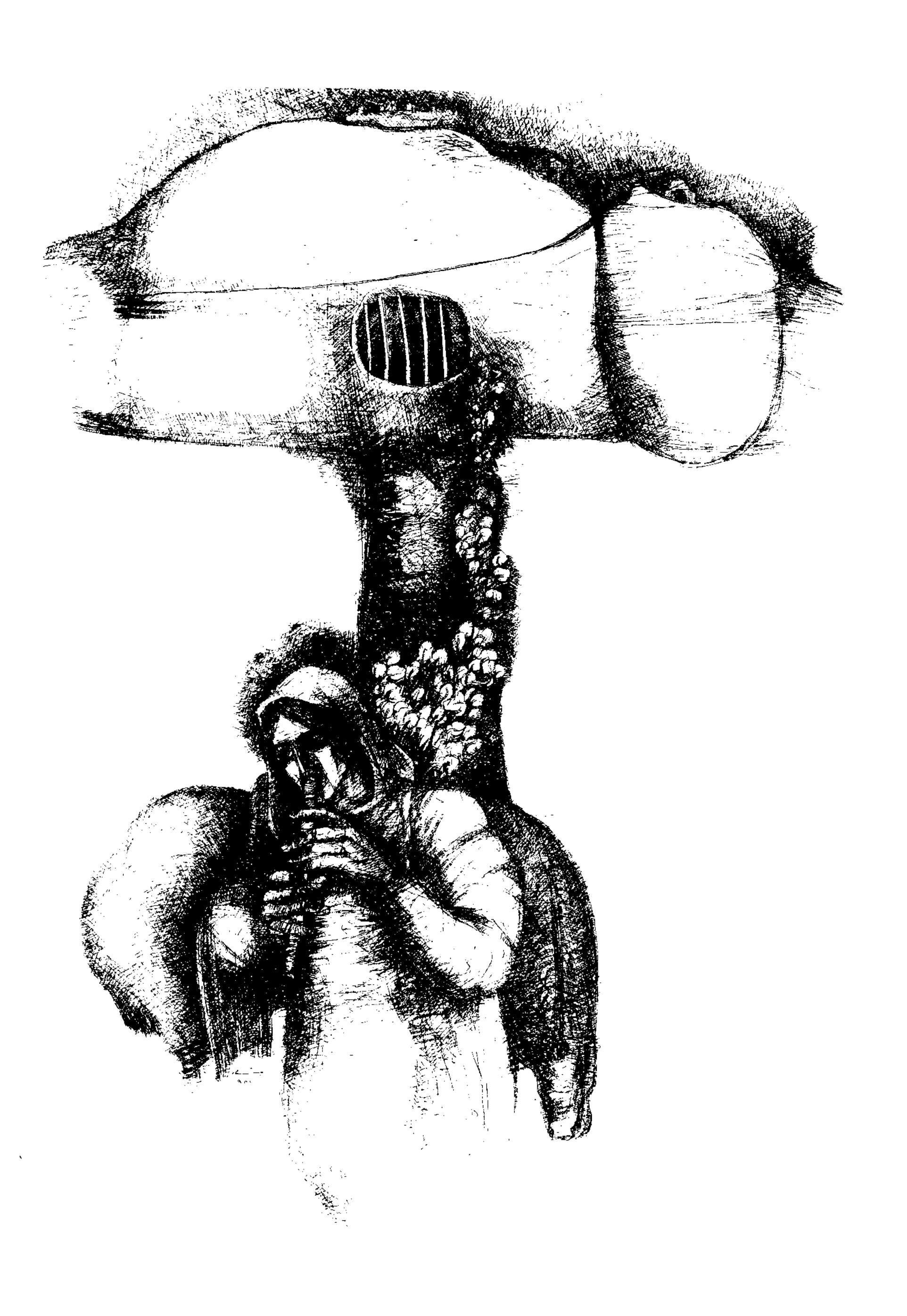
ماذا نفعل
وليس للنساء كلهن فم واحد ؟
والموائد لا تؤكل كلها بلقمة واحدة ؟

سنتابع بلاغتنا إذن
ومثلما اشترى ناظم حكمت
باقة من الخبز
سنشرب الساعات والأقلام والكتب
وسنهمس شجوناً
حول لغز جارح
أول حرف من اسمه : الوطن .

أجسادنا المترعة بالشهوات

وبالأحقاد والشعر
عاجزة عن حمل سر جديد
فالأسرار التي تخجل حامليها
ليس بينها حبنا وشجارنا
وذكرنا للأعضاء التناسلية
أو خياناتنا الزوجية
في عالم السرقة والقتل والخيانة الوطنية .

اذن . . .
كل شيء قابل للتغليف
بضحكة فارغة
وبترديد تعابير ممجوجة
مثل : « مرحباً يا صباح »
« عاشت قضية الأمة »
طاخ .. طاخ .. طاخ
فبعد قليل
ستأتي الوحشة
ولا يبقى بعد هذا المزاح
وبعد هذا الضحك والسُكْر
إلا الشعر
والوطن السري !!



(. . . أقول وقد طوّح بي فيضٌ من نورٍ
ألقى بي ما بين السمت وما بين الدركات السفليَّهْ :)

. . إغفالي في « حضرة » جسمك موتٌ يتسرَّب لي من كل الأوجه ، ريحٌ فاتـكةٌ تتحـدّر نحـوي من كل الأعـين والهضبـات المحمية بالعوسج . .

إلقائي في سفح الجبل الأجرد والأسلاك الشائكة . .
فيا . . . مالكة النوم الأخضر، آجرَّ اللحظات الذهبيَّهْ؛
يبعدني وهجك عنك ألوف الأميال البحريَّهْ!

إن شئتِ تراميتُ على الجمر الخالد ،
أو شئتِ تحللتُ إلى ذراتٍ خابية ـ لا تضع حرفاً مهما طال الزمـن عليها ، لا تبدع موسيقا أو صورة تنّينٍ مقهورٍ أو قامةَ عشبَهْ .

لو شئتِ أقمتُ بعيداً في الصمت ، قريباً في النسيان قريباً وبعيداً في الإهمالِ !

إذا أحببتِ جعلتُ لوجهيَ أقنعةً للرقص وأقنعةً للمسرح ، أجنحةً للهرب المتواصلَ ، أوشحةً للإخفاءِ . . و . . أقبع عند الأرجوحة حتى

يتمطّى الليل المقفر . .

أقفزُ ، أتأرجحُ ،

أشنق جسمي في الريح ،

أدليّ قامتيَ المنهكة إلى البئرِ

أروحُ ، أجيء مع النسمَهْ ،

أتدلىّ في العتمَهْ ،

أتعلَّقُ ما بين الأرض الموحشة وأي سماءٍ مقفرةٍ . .

أغمضُ عينيّ وأترك لضواري البرية أن تغتال هدوئي ، أو تفترس حناني .

لا أشكو من شيءٍ إلا بعدك عني أو قربك مني نصف الهوَّهْ ،

لكنْ ،

كيف يؤدّي الكافر في حضرة جسم المحبوب صلاة التوبة

والبعد يقاتله والقرب يحاربه والموسيقا تهجره ،

والعتمة تحرمه من رؤ ية قبس يطلبه

والعشب بلا رحَمَهْ ؟!

لكنْ ،

كيف يؤدي الهارب رقصته الليلية في ظل السيف

ويعلن في الوادي الأقدس أفراح خلاياه المشويّه ،

في سفح « الطور » أغانيَهُ البدوية ، نشوته المجروحة كيف وكيف يدندن ببراعمه الناشبة خلال الأعياد المقرورة .

والرمل تباريح . . .
والنار لها زغردة في الريحْ ،
والوحش تطارده الأرواحُ :
تجرّحه تجريحْ ؟!
. . . آمنتُ بقدرتـك على ذبحـي حـين تكونـين بعيداً عن دارتـيَ الشهويَّهْ ،
حين تصيرين قريباً من دائرتي القطبيَّهْ ،
حين تصيرين قريباً وبعيداً من حارة أحزانيْ !
آمنتُ بأن المغرب قَدْحَانَ وسيف الصبح القاني
ما زال غميداً . .
و . . أنا أمشي ؛
أمشي نحوك في التيه وأمضي عنك إلى التيهِ
وطعم النرجس في الريح ونكهة أعشاب اللحم ،
مرار الزعتر في ثغري . .
لا تنجدني . . .
ـ أوّاه على طعم الأشياء البرية . . لا يحسم جوعاً أو يبعـد خوفـاً أو . . يقضي أمراً ،
أوّاه من التعب الهابط من أعماق الظلماتْ !
من همّ البحث عن الآثار الخافتة خلال الكلماتْ .
من شوقٍ لا يعرف ما فات وما هو آتْ !!
. . الريح تعاقبني ،
صوتك من بعدٍ يتعقّبني ،

صورتك على حبلٍ مشدودٍ ما بين الأفق الغربيّ وما بين الأفق الشرقيّ . . تلاحقني . .

وأنا . . . أمضي ، أمضي في ليل الليلْ ،

لا أخشى ، أخشى أن يدهمني السيْلْ !

و . . أُلملمُ من قاعدة الرأس بقايا الصورةِ ،

ثم أنتّفها وأعود أجمّعها !

أجعل منها مهداً للدمع الهاطل من سحبٍ نافقةٍ في صحراء الكلماتْ !

و . . أمزّق جلدي ثانيةً ،

أحرق جلدة رأسي الموشومة بالسّوَر « المكّيّهْ » ،

أجعل من قسماتي الشوهاء صُوَى تهديك إلى . . « عرفاتْ » !

ـ . . يا ويلي لو جئتِ إليّ ،

يا خوفي منكِ عليّ !

يا . . رعبي من هذا الزمن الفاجع من هذا الرب المحنيّ!

يا . . ماذا أفعل وأنا قد شوّهتُ العالم في وجهي المشويّ ؟!

. . آويتك في قلبي يومَ لقيتك في برد الصدفة أو حرّ الحركاتْ وجعلتك آنية حناني الإنسانيِّ ـ أيا آنية الذهب الإبريز وآنية النرجس والياقوت المحكيّ ! ـ

أجريت لكِ الموسيقا من كل تجاويفي ـ آهٍ يا تعبي ! ـ

أمّرتك في مملكتي الشعرية : برقاً ، صاعقةً ، سحباً ،

بيضاء

وحمراء

وصفراء
وخضراءْ . .

قبستُ ـ شغوفاً ـ من عينيك الأقواس القزحيَّهْ . .
وجعلت حبيباتِ العرق النافرة صباحاً من سرّتك المأهولة
أحرف أشعاري الليليَّهْ .
غنّيتُكِ أنوائي ولهاثي ،
غمغمتُ جنوناً في حضرتِك الكلمات المهووسة ،
ثم عَبَرْتُ إليكِ فراعَتْني الوحشة والصمت الشامل
و . . الأمواتْ ! .
. . أتساءل في كل الأوقاتْ ؛
تدهمني الأسئلة ولا تبرح : سرباً من أشرس أنواع الحشراتْ
. . هل أنتِ ترابٌ أم أنـت خرافـة عصرٍ منتهـكٍ ، أم أنـت بلادٌ
غاصت في الماءِ وعادت فانتشرت في جسميْ :
سماً صخراً ، أشنياتَ ؟!
أم أنتِ خريطة موتي ـ لم نتقابل عفواً . . . ـ
جاءتني من « علم الغيب » لتسرع بي نحو جهنّمَ ،
أقتاتُ بصورتها ،
« أتناول » سرِّيْ من سرتها ،
أتصالب معها في إيقاع الزمن الآتي ؛
فنفرّخ موتاً وقنابلَ ،
ننجب أطفالاً مقتولين وتنّينات خافيةً عن كل الأعينِ ،

نُتئِمُ يتماً وبراعمَ ،
نبدع حزناً وقصائدَ ،
نجلب لكلينا الخوف ، الشوق ، الحب ، الموسيقا ، الموتْ . .
أم أنكِ مبعوثة أرضٍ أخرى : أجمل ، أجمل ،
أصفى ، أخصب ، أفسح . . . ؟؟
آهِ ، يخيّلُ لي أنك كنت الضلع الأول في صدري ،
كنتِ أذيني الأيسر يوم وِلِدْتُ . . .
وصرتِ ـ على مرّ الأيام ـ العينَينْ !
فرأيتُ بكِ الدنيا من أول ليل صرت أرى فيه الدنيا ؛
ما أعرف عن هذا العالم منكِ
فكيف إذا صار العالم أنتِ ؟ !

* * *

. . . يوم رأيتُكِ كنتِ معرّاةً من أوراقكِ ؛
فنسجتُ لكِ الإيقاعَ سراويل ، الأحرفَ ـ داميةً ـ صدّاراً ، قافيةَ
الموت الفاشيةَ بشعري منديلاً وأساور صوفيَّهْ !
وكسوتُكِ بالصلوات !
فزيّنتُ الخَصرَ رباعيّاتٍ ، والقدمَ الصمتَ ، لففتُكِ تمتمةً ،
وتهجّدتُ على عتباتكِ ساعاتْ !
طوّقتكِ بالأوراد السريَّهْ . .
. . لم يسلم صوتي من بُحّة حزنٍ ظلت تجرحه . .

عيناي اغرورقتا بالدمع القسريِّ . .
ـ الأنسام المثلوجة كانت تجرح كل الوقت المقبل والزمن الصافن ـ
لكني تابعتُ حياكة أثوابك قبل حلول الأوهام الشتويَّهْ . .
وتنزّل نحوي من سابع حرفٍ للخوف كتاب الصفحات المجلوّةِ :
من ركبتك إلى السرّة ،
من كتفيك إلى آخر موسيقا الحركاتْ . .
سايرتُ القطراتِ السارحةَ خلال الخُصُلاتِ
ووازيتُ تقطّرها عبر الصدغين
فضيّعتُ الإيقاع ، نسيتُ الحركات الشعريَّهْ . .

(. . . لم تبدرْ عن مسامّك ومضة ، فارق صمتك الابتهال ، انتثرت في الزمان المحيق بوجهك حروف الرغبة ، غاص حناني في رمل الأمكنة فقلتُ : أستعيد من ورق الدهشة تنفساً جديداً بإيقاع يولد فرحاً ؛ انتهيتُ إلى صخرتك فألقيت برأسي عند حافّتك وأسلمتُ للغفوة جناحيّ بعيداً عن زمجرة الكواسر ! !)

. . . وتعثّرتِ الأيام بصمتك ؛
صار اليوم يمرُّ بأصداف الأسئلة فيكبو ، يتصدّع ، يتفتّتُ . . يتبعه الآخر ، يكبو ، يتفتّت ، يتناثرُ . .

حتى ألقاني ليلُكِ في العتبات ـ الآجرِّ ،
رماني صبحُك في البرزخ تحت وميض السفن المتلصّصة علينا في الليل لترقب آثار خطانا فوق الصحر خلال عروجك تحت جناحي نحو

الشمس المعتمة إلى . . علّيينْ . .

و . . . رأيتك تنتحبين ، رأيتك تنتحبينْ ! !

* * *

. . . كنتُ وحيداً بين الأسماء الجامدةِ ،
وكنتُ فقيراً لا أملك أسلحةً أو أقماراً أو أزهاراً أو حدثاً
يوقظني من إيماني بالنار الكامنة على البعدِ . .
وكنت أسير على حدٍّ صراط الأيام بلا سندٍ ،
قربَ يميني نار جهنّم ، حد يساري نور الجنةِ :
ـ . . الأرجحةُ ، الدوخةُ ، شبه دُوار يتملّكني ،
أسنار ، النار حواليَّ ،
عواء ذئابٍ وفحيح أفاعٍ ـ
كانت دنياي بلا رَهَجٍ للألوانِ وشيء يخنقني ،
أتنفّسُ نصف الموت ، أصعّد زفرات الرعبِ . . .
و . . لُحْتِ على البعد شراعاً ، ببرق ألوانٍ قزحيَّهْ ؛
ناديتك من غير كلامٍ ،
ولوَّحتُ بكفيَّ مراراً ،
وصرختُ : أيا منجدةَ الملهوف . . إليَّ ، إليَّ ،
فما اقتربَ الوهج ولا صار المشهد ينبي عن وجهك !
. . غامت دائرة الرؤ يا ،
سقطت أحرف كلماتي نحو النار

آلتهمتْ أفعى أغنية طفرت عن شفتيَّ
تحشرج صوتي ،
ما عدت أرى شيئاً !
لكني أسمع أصواتاً فاجرةً ، كلماتٍ نابيةً . .
يا . . .

(. . التقطتُ قَلامة أغنيةٍ ناشجةٍ ، تسرّبتْ من بين غبار الأصوات نتفة حب هاشلة . . ، روّعني نزف الدموع في الريح ، نَهَدْتُ من عَوَزى نحو الحزن إلى الخيط المتموّج في العتمة ، طالعني شيء كالحرية . .

سارعت إلى البحث عن . . يدي !)

. . . وتجمّع حولي رهطٌ من مخلوقات ناشزةٍ وهياكل عظميَّهْ !
وتوافد من كل جهات الأرض عليَّ : عيون وشفاهٌ ، أصوات فاقعة ، أشباح رجال ونساءٍ ،
أفكارٌ خرقت طبلةَ صمتي . . ،
وهدوءَ حبيبات الماء الغلّفتُ بها يوماً أحلامي !
هاجمني الهدهد والسنّورُ
وما موتُ فَقَس من الجمجمة الأرضية منتهكاً أمني ،
قامت أشجارٌ متفحّمةٌ من قلب التربةِ ،
ظلَّلَت الدار الواطئة بظلٍّ أسودَ
واحترقت أسواري لمّا هبّت ريح ماكرة من خلف الأبواب السريَّهْ !

جرفتني التيارات السطحيَّهْ !
واغتالت كلَّ توازنيَ الصعبَ ،
فصرتُ أجدِّف بالصبر ،
أحرّك من حولي الطين الجاري بيديَّ المنهكتين الهابطتين إلى الأعماق الجوفيَّهْ . .
. . ووجدتُ بأني صرتُ فجاءَهْ ،
في أرض لا أعرفها !
فوق صخورٍ جارحة تتفتّت من تحتي في زقزقةٍ عابثةٍ !
ورأيتُ وحوشاً أشكالاً تسبَح قدّامي ،
تتقافز حولي ،
تزقو ، تزأر ، تثغو ، تتضاحك كالرعد الخافتِ
تتضاجع دون حياءٍ !
تغطسُ ، تطفو . .
وأردت الهرب فما اسطعتُ ،
أردتُ الغوص إلى أعماق التربة ، عاندني الصخرُ ،
تشبثتُ بذيل سحابة صيفٍ ،
أدركتُ بأني مصلوبٌ للصخر بخصلاتك يا حوريةَ بحر الخوف !
تمنيت لو أنَّ طيوراً تأكل عينيَّ لعلي أتأمّلُ ما حولي ،
لو أنَّ خفافيشَ من النار تُناثر لحم ذراعيَّ وتأكل قلبيْ !
حتى لا أشعرَبالكابوس الرابض فوق العالم . .
لكنيْ كنتُ مجرّدَ شيءمرميٍّ فوق صخورٍ جارحةٍ ،

مصلوبٍ بجدائل محبوبته و . . يصيحُ ! يصيحُ ، يصيحْ ،
فتضيع الصرخة في صمت البحر وأعماق الريحْ ! !
. . . ماذا يا فاتنتي القاسية جنيتُ لألقى هذا القدر الغاشم وحدي ؟!
أم هذا ما يجنيه الآباء على الأبناءْ ؟!
ـ وأبي ما كان أباً سوءاً ،
عاش حياةً قاسيةً أقْفَرَ آخرُها من كل الأحلام فمات حزيناً مقهوراً في استعلاءْ . . ـ

* * *

يا . . فاتحة الدمع السامق ، يا خاتمة الدمع اللألاءْ ،
فكّي عن زنديَّ الأغلال فما غيرك يعرف أني لم أسرق ناراً أو أقتل زهراً أو أجني عشباً . .

ما غيرك يجرؤ أن يتحدّى الآلهة المشرفة على صلبيْ ،
حُلّي من حول حناني هذي الأنواء ؛
نتوحّدْ في جوهرة الشعر ، نصرْ عشباً بريّاً في البحر . .
نباتاً بحرياً في الصحراءْ . . !
نتلامسْ في كوكبة الموتِ
فنحيا ذكرى في ديوان الأحياءْ ! !

بلا عنوان

. . . عندما ناديتني في أول الليل من البعد وقد كنت وحيداً ،
لم أكن أحسب أنّي سألبي !
كان يأتيني مع الريح النداءْ ،
هادئاً ممتزجاً بالملح والأصداف والطحلب والنوم المضاءْ . .
غير أني ، لم أكن أعرف ما يحزن قلبي ،
ثم . . . لبّيتُ وجيتُ ؛
حاملا زوّادة بائسة من أدمع الموتى وحلم الفقراءْ !
وتمليتُ من المشهد !
أُفعمت بلون التيهِ ،
لم أحفل بما في زرقة العينين من رؤ يا ،
على سجّادة من زغب اللحمِ . .
تشاهدتُ
وصليتُ ،
بكيتُ !
. . كل تلك الأنهر الخاوية الصدر تعـرّت من حنـان اللغـة المائية
انحازت إلى حزني ،

وكل الشجر المستوحش الخضرة ما صلى معي !
وقطارات من البعد تراءت لي ثعابين
و . . مارست طقوس الخوف والوحدة في صمتٍ ،
وأصغيتُ مراراً للنداء . . .

* * *

. . ها أنا أفرد آهاتي على الجسم السماويّ ،
وأهفو لعناق الماء والرمل ، وأحبو في مكاني
نحو ابريز الحواشي والذراعين الحنونين ودوّامة
بطن الموجة المتّئدَه !
ها أنا هذا على حافّة سكري ،
عالق ما بين جدران انتشائي وهبوبي نحو ماء الحركات اللولبيَّه ،
ومكوثي تحت وكف الخوف من أن أتدلّى ،
ثم ألقي بجنوني
دون أن تستقبل حبي . . العرصات العربيَّهْ !
و . . يزوغ الماء من تحت اشتهائي ،
وتريم النسمة المبترِدَهْ . .
وأراني مثلما كنت قبيل الرحلة العاقلة المبتعدَهْ ؛
ساكناً تحت همومي ،
ساهماً ، مستسلماً للأرض والكتب وأفكار بلا لونٍ
للذكرى . . وأحلام الصبا المتّقدَهْ . .
وذراعان من الغيم حواليّ ،

حفيفٌ كهدير الدم قدامي ،
خطىً هامسة توقظني من غفلتي .
أنظر : لا شيء سوى ظلي على الرمل الحريق . .
وامتدادٍ دون حدّ لصحارى الزرقة ؛
الأزرق والكحليّ والفضّي والأبيض والوهم البريق . .
وزقاء لفراشات عظيمات لها أجنحة تحملها ساكنة كالآهة المرتعدهْ . .

. . . آهِ يا صبح البحار اليعربيّاتِ إليّ الآن بالكأس وبالناس الذين ابتعدت عنهم خطاي النزقهْ . .
وإليّ الآن بالراية من تحت حجار القبر كي ألقي بها جهراً لأمواج البحار الشبقهْ ! . . .

وتعالوا يا ندامى نلتقي سراً لكي نصنع تابوت الشروق !
ونصلي قبل أن نودعه الأعماق في حانة ليل الغرباء ،
نكسر الأكؤس فوق الخشب الظاميء . .
حتى نرتوي من دمه قبل البكاء !! . . .

. . . ولماذا أنا لبيتُ النداءْ ؟!
حاملا في جعبتي حزناً خرافياً ووجهاً من دماء ؟!
ولماذا أنتِ ما كنت معي ؟
ثم لما انبثقَت عيناكَ في عتمة عمري ،
كيف لم أحملك نيشاناً على صدري ؟
لماذا لم أُقِم قربك صيفاً وشتاء !
لِمَ لـمْ أدفن بقايا نزواتي وجنوني

في ضريح الجسد الهائل ملفوفاً بثوب الأدمعِ ؟ . .
. . . أين كنتِ ؟
البحر نادانا معاً ، والريح والنورس والصحبُ . .
فما لبيت ـ في البعد ـ النداء . . .
أترى انجابت عن العينين في بحرهما الليليّ آهاتي ،
ومرت صورتي خطفاً وما جاء المساء ؟ !

(. . آه لو تدري النساءات الجميلات بأن الشعر والحب صديقان لدودان ولكنْ . . .)
حلّ في القلب الشتاءْ !
فانسلي من جانحي العملاق ريشاً واستري عنّيَ حزن الشفتينْ !
وانسليني من وهاد الشوك والذكرى ،
اهربي بي نحو شط الرّهج الأزرق ، مدّي لي ذراعيك ولو كنت على جرفٍ يؤدي للجنونْ . . .
فأنا المبتلُّ بالماضي وبالخوف من الآتي . . أنا . . الرب الحزينْ !
وأنا الهارب من كل صحارى العرب الرملية ، المائية الوجه ،
أنا الداعي إلى الخلق دماراً وحريقاً . . فسكونْ . .
فاسكنيني هيكلا منتحراً بالريح والملح ، حريقاً من جنون .

نصلِ الموت بموتٍ فاتنٍ ، والهوى بالرعب والذكرى ، بلا شي . .
ونعلي كوخ جسمينـــا . . . . ، على هاوية الظلمـــة نعـــرى . . . للمنون ! !



رحيل الى آخر الليل

. . . في الشارع تزدحم الخطوات ويفترق الأصحاب ،
وتكثر « أوجه من أهوى » !
تركض آلاف الذرات ملوّنةً ،
وتفيق الأصوات العالقة ببلّور الواجهة الممتدة حتى آخر بابٍ في « جلّق » ،
يصحو الجبل الأجرد من نومٍ طال ، و . . يرجع للنوم !
يتقابل وجهان على منعطفٍ ويحدّق كلٌّ في قسمات الآخر دون كلام . .
تنزلق النظرات وتهطل نحو الأرض مكوّنةً مستنقع صمتٍ أصغر من نصف اللّيرهْ !

يصطدم قطاران من اللحم على ناصيةٍ ،
ينفلتان عن الخطو . . يبتعدان ،
يتراشق بالقبلات « يزيد » و « تورا » ،
ينصت بردى للقصف ويحزن ؛

* عنوان رواية شهيرة للكاتب الفرنسي سيلين .

ثم يغيِّرّ مجراه ويعطي كل دماه للاثنين ويمضي محتضراً مسودّ الوجه إلى الغوطهْ ،
يتلفّت كالمأخوذ حواليه ؛
يتابع مجراه الخاوي ويموت على كتف الحانية ـ الصحراء ! !

* * *

. . . الشجر العاقر فوق رصيفَيْ شارعنا يتمنّى مطراً يغسله من آثار النفط ولون الطين على الأوراق . . .
يتحادث إذ ترعشه النسمة أو تحرقه الشمس بصوت مهموس :
ـ يا جارتي الدلبة ، مرت بي في آخر هذا الليل البارد سيارهْ ،
تحمل موسيقا وأرانب وطيوراً وعروسين من المرمرْ ،
لم تتوقف قربي ،
بحثت عن ظل آخر في أرضٍ أخرى
و . . حزنتُ ،
بكيتُ بخمس وريقاتٍ صفراءْ !
ـ وأنا استندتْ عند الظهر إلى جذعي بنت تلبس ثوباً أبيض ،
فنهاها صاحبها ،
وبكي لتلوّث محزمها باللون الأسود ،
فرثيتُ له وبكيت عليه !
ـ . . لا أدري كيف مضى فصل الخضرة هذا العام ولم تنبت في أغصاني العجفاء زهورْ ،

جاء الصيف ولم أثمرْ ،
والآن يداهمنا تشرين . .
ـ يا جارتيَ البلهاء لو أنك تدرين ؛
ستمر فصول السنة وأنتِ كما أنتِ ؛
فقد جفّت أعراقك متٍّ ،
وبعد قليل تنهال عليك فئوس الحطابين . .
و . . تهاطلتِ الأدمع صفراءً من أشجار الأرصفة القفراءْ
كانت في آخر لحظات الأحياء !

* * *

. . وفي شارع الْمالكيّ ـ وأنتَ تسير وحيداً ومرتبطاً بالبكاء الخفيّ يطرّزك الحزن في كل عضوٍ رصاصَهْ . . ـ
تطل عليك عيون من الدّم ، تمرق ما بين ظلك والأرض وهي تدوّم حولك خافتةً وترافق خطوك دون كياسَهْ
تدير قفاك لِلاَقسَيون وتمضي أماماً
و . . وجهتك « المزة » الساكنَهْ ،
تواكبك الطائرات الخبيثة من بُعْدِ مليون مترٍ ،
وعشرون سيارة في الطريق حواليك
تثقب طبلة حلمك بالأغنيات الرخيصة وهي تدوس
على ظلك الرطب دون التفاتٍ !

فتمضي ،
تسير وحيداً ومخترقاً بالنعاس ومنتهكاً بالسآمة والخوف حتى حدود
الكآبة في « الربوة » الآسنة !
وتمضي ،
يحاذيك نهر الشريعة أو ما تبقى هنالك من بردى !
كثير من النفط في الجو ،
حشد من الشجر المتهافت في الضفتين له لون أسيجةٍ في الطفولةِ
تمضي ،
حواليك ليل من الصرخات الحديدية الوقع :
لم يبق منتجعٌ تحت ظل الشجيرات للفقراء !.
تَوَقَّفُ
تنظر في حدة نحو بيروت ،
تعكف سيرك ،
ترجع نحو المدينَهْ . .
كانت لهذا الطريق قبيل ثلاثين عاماً طلاوة باب الحديقَهْ
وكان له دفء عتبة باب الطّفولَهْ ،
ولكنه الآن منقسم مرتين ويفضي إلى « الجسر »
- شيء عجيب يقام ليحجب عن عابريه الشوارع والناس ويحجب
عن عابر تحته كل لون السماء ! -

و . . تبدو الحجارة ضارعةً والنوافذ معتمةً ،
وتبين على البعد دائرة « المرجة » قد طوّقتها الحجارة

والضجة المستفيقة والإنحناءْ . .
. . فأين مكانك في هذه البلدة ـ المومياء ؟!

* * *

ـ ويه[illegible] ـثل السوداء على الأرض والشرفات المضاءة والناس ،
تهبط ذرات [illegible] مكهربة فوق كل المصابيحِ ،
يعتم وجه الشوارع ،
يهرع أكثر سكانها العابرين لغاياتهم . .
ـ غيرَ بعض الطيوف ترى من بعيد تروح وتغدو . !
و . . أنت تسير وحيداً ومنتهكاً بالفراغ المدوّم والخوف ،
لكن ، تسير ، تسير وظلك غابَ . .
تمر على منزل كان يفلت نحوك أفراحه . . .
تمر بمقهى كنت لا تعرف النوم فيه . .
تعرّج دون اهتمام على شبه خمّارة ؛
كان فيها الصحاب يغاوون أحلامهم !
و . . تعاود تطوافك الحرَّ في لا مكانٍ . .
ويفجؤك « الصوت » من خلف خارطة خشبيَّهْ :
ـ توقّفْ ، لماذا هنا أنت ؟
ـ إني أطوّف بحثاً عن الناس والأرغفَهْ !
ـ ووحدك في آخر الليل ؟
ـ وحديَ من أول الليل ،

ـ من أين أنت ؟ وماذا تريد من الخبز والناس ؟
تنظر للشرفات وتدفن كفك في قعر جيبك ،
إنزع .
ـ ولكن كفيَ فارغة وجيبي لا يحتوي غير أحشائه
ـ . . . أقول ابتعد أو . .
ـ سأمضي و . . عمتَ مساءً ! !
و . . تمضي بغير التفاتٍ ودقات قلبك تملأ كل الفراغ . . و . .
يفجؤك « الصوت » ثانيةً في احتدامٍ أشدَّ ومن خلف بوابة عربيّهْ ؛
ـ توقّفْ ، لماذا تدور هنا يا غريبُ ؟
ـ أنا . . . من هنا وأحب الشوارع في الليل والناس تحت ضياء النهار
ـ ولكنَّ كل الشوارع خالية بعد منتصف الليل إلا من الغرباء أو الضائعين ومن . .
ـ تعلمت منذ ازدهار الشباب التسكع في الليل ،
كل المدينة تصبح لي والشوارع تمنحني الحب والانطلاق . .
ـ تجاوزْتَ حدَّ اللياقة . . . ،
قلت انصرف من هنا أو . .
ـ إني تجاوزت فعلاً حدود الشباب .
وها إنني أعتذر و . . عمتَ مساءً .

* * *

. . . تسيرُ ،
تحاول أن تسرع الخطو في شارعٍ جانبيٍّ ،
وتسمع دقات قلبك ، تلمح سيارة مقبلَهْ ؛
وتلمح قافلة من توابيت تطوي المسافة نحو الشروق
ولا . . تتوقف سيارة الليل ،
تعدو وراء الخطى المعولَهْ . .
وفجأة ،
تحيط بك الخطوات القوية ، تدرك أنك طُوِّقتَ بالعدسات
وبالعربات وبالصوت والضوء ،
تعرف أنك صودرت من فرحٍ كان يسقط نحوك من شرفة مهمَلَهْ !
تحاول أن تتحاشى العيون وتهرب من حمرة الذعر . .
لكنّ كلاّبة عربيَّهْ
تطوّق في خفة معصميك ،
فتمضي رشيقاً تجوب الشوارع .
تمضى خفيفاً ، خفيفاً كأغنيةٍ هلهلهْ . . . .
وحولك ناس وأحصنة وطيور
و . . معجزة مقبلةْ . . . !!
. . . للحجارة في منزل السيّد الحب هيبتها ؛
إنها من موادَّ قابلةٍ للتأمل والغوص في قلبها ،
أو . . مزيجٍ من الماء ، بلّورة الحزن أو من شفافيةٍ
تفضح اللحظات التي حجرت في شرايينها القاسيَهْ . .
ولوهج الأعشاب في حضرة الصمت أبهّةٌ وحنانٌ ،

وفي محفل الموت هيمنةٌ . .
ـ ربما التمعت عشبـةٌ في اشتهـاءٍ أو انطفـأت عشبـةٌ في انتشـاءٍ ،
وقد . . تتهافت عين مبلّلة بالدموع على عشبةٍ داميهْ !! ـ
ولصوت المياه قافيةٌ من تراثٍ عريق جديد ،
لذبذبة القطرات على وجهه غربةً ثانيَهْ . .
ولـوشي الطحالـب فوق حجارتـه اللبنية وزن البـكاء المرنّـم
والوشوشات
ومشْي المويجات فوق صفحته هذر يتلاشى ،
يغيب ويبدو على رفرفات الجفونْ . .
وللشوك في الضفة النائيَهْ ،
رهافة شكل الجنونْ ! . .

* * *

. . بهذا تحدثنا الغابة المدنية في ظاهر المدن الشجرية
والورق المتلامع تحت شعاع المنونْ . . .
بهذا سنوصي لأحلامنا الآتيَهْ . . .
ونرسل أغنية كالحفيف الملوّن للطفلة الباكيَهْ ،
تعيد إليها حنان الأمومة . . حتى تقيم لنا في خلاء النصاعة خاتمة
الجسد المتموّج تحت مشاعرها الباغيَهْ !!
وندلج في بحرها فتنام وتغلق مصراع رغبتها في فتونْ . . .
(. . . أيهاذا الشراب الصبيُّ ، تدلّل علينا إذا ما امتثلنـا لحـاشية

الليل ، روّض شفاه المحبّين ،
أرسل لهم في بريد الربيع الرءوم عناوين حكمتك الخاويَهْ . .
فقد جفّ لون فراشيك فوق العيون النديَّة ،
نامت ظلالك قبل اندلاع الرياح على العتبة الخاليَهْ .
وصار السنونو يردد نوح الحمام ،
وغُصَّت بلازمة الحزن نجمتنا الحانيَهْ . .)

و . . هأنذا واقفٌ فالحجارة تسندني ،
وأخشى سقوطاً ـ له نكهة الزمن العربيّ ـ
إلى الهاويَهْ !
وهأنذا أبتدي مهرجان الجنون الغبيِّ
وأحكي لكل الظلال المؤهلة الآن عن وجع
المتعبين وخيبة آمالهم في المواسم . . .
كيف أشير إلى موطن الداء في المحن الآتيَهْ ؟!

* * *

. . . وللوطن المستحيل نقاوته في العظامِ
نسبّح باسم مرارته في المنامِ !
و . . يتركنا في الهجير فهجره في ضرام المحبةِ
تحتِ أشعة بسمته الوانيَهْ . .
ـ وقد بعدت ، بعدت . . . ـ نتسكّع
نشرب نخب مرارته ونذير الكئوس على الغرباء

فنسكر من ومضة للحنين المبرّح تحت جفون النّعاس
ونبسم للمحنة الآتيَهْ !!

* * *

و . . أنت ، أميرة هذي الأماسي وأجنحة الوردِ
راعية المهرجان المقام على شرف الموتِ
حامية القلعة التي تستضيف الفراش الحزينْ . .
وأنت التي تتفتَّح في القلب مثل الكآبة
أنت الحزيران والأشهر الغادرات خلال الخريفْ ؛
أأمري كل هذي الحجارة بالرقص ترقصْ ،
وتشدُ إذا شئتِ ، تصبح هياكل عظميةً . .
تنشر الضوء في مهرجان الحروفْ . .
أأمري العشب والسرفات ، الورود ،
الطحالب ، كل عناصر هذي الطبيعةِ . .
تَمُثلْ أمامك مزهوّة بالاطاعةَ ،
تهجر منابتها وتكوّن لك الجند والحاشيَهْ!
و . . نحن ـ إذا شئتِ ـ نجعل من كل أحلامنا بالسعادةِ
والحب . . دستور حكمك ،
نغسل بالمسك رجليكِ ،
ثم نكرّس آفاق جسمك في عمرنا . . .

طاغيَهْ !!



أنت... لم تفهمي!

و . .

. . أقول بأنك لم تفهمي تعبي !

إنه . . منتصف الليل قد أقبل ،

أقبلتِ الهلوساتُ . .

وها إنه الأرق المتحفّز ،

شيء من النوم يقبل ثم . . يعاود تحليقه في المكان ،

أقول بأنك لم تدركي وهي . .

الكوابيس جاهزة لاقتناصي وحيداً ،

وعريي َليس شفيعاً ،

فها . . إنها الساعة الواحدَهْ !

. . ساهرٌ ،

ـ أنتِ لم تفهمي سهري في الفراغ وخوفي من النوم ،

حزنيَ في الصحو ـ

شيء من الوسَنِ الجانبيّ يجيء إليَّ و . . أنهرهُ

لا . . إنه تعبي المتواصل ، نومي الخفيف ،

ابتهالي إلى اللغة الجامدَهْ !

و . . أقول بأنك لا تتقنين احتوائي بكفّيكِ .
أو بالجنون الموازي لأوهاميَ الوافدَة . . !
. . أزيّن لي درجات السرير ولون الحرير المضاء أمام عرائك، لكنني عاشق وثناً رائعاً . . أصطفيه من اللحظات الطويلة في مدن العشق . .

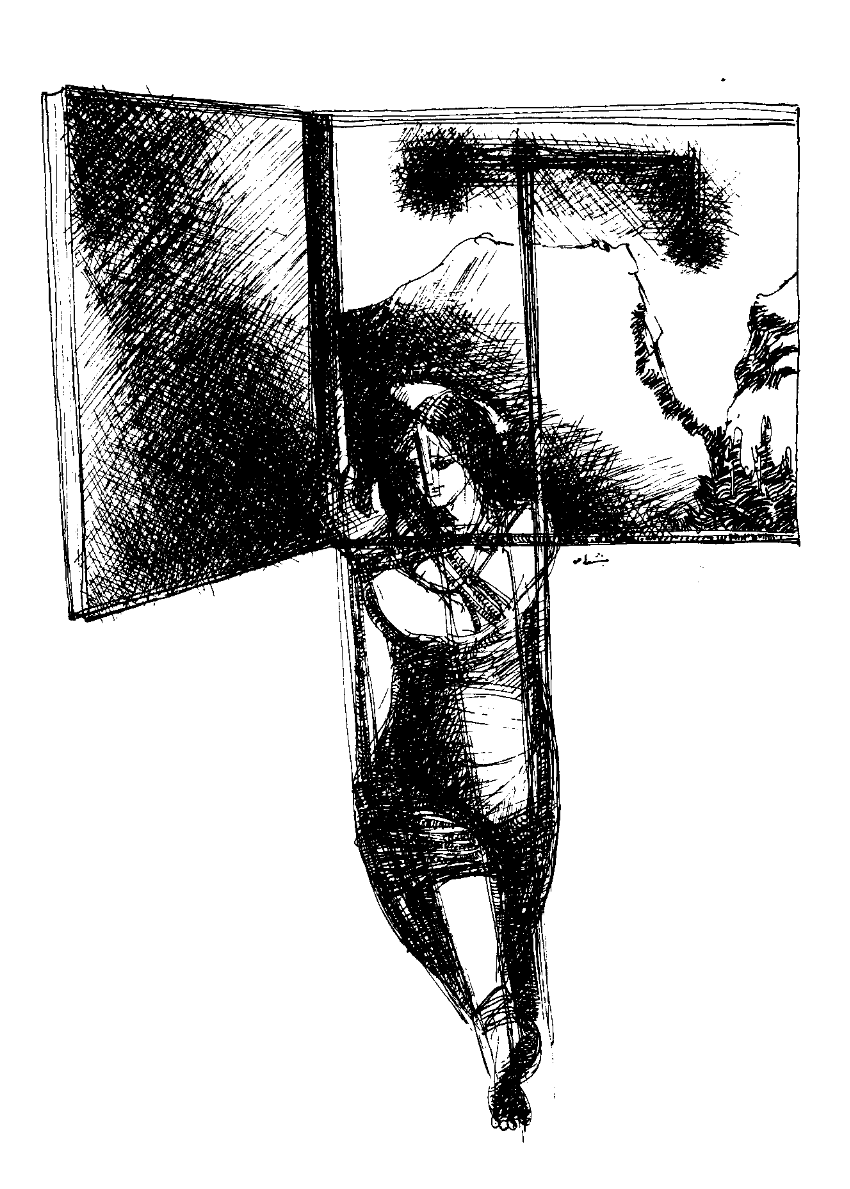
لكنّه منكر شغفي ونعاسي وخوفي وبادرة الأرق المتموّج في غرفتي البارِدَهْ . .

. . النهار يضدق كثيراً ،
وسقف الليالي قصير عليّ ،
وجدران أمكنة السكر توشك أن تسقط ،
الدرفات تخلّعها الريح في كل بيت أسامره لحظةً ،
والوجوه تحدّق بي في اندهاش بليدٍ ،
- لماذا تضيق البراري على الوحش وهو يحاول
كسر جدار الفراغ ؟! . -
تمنيت أن تستبيني لهاثي التعيس خلال احتفالي بهجرة عينيك عند صباح وديع

- وكنا وحيدين نَبحث عن لهجة في الحوار بغير كلامٍ . .
ونذعن عند هطول البكاء لكل العبارات نابيةً
أو نكرّر خاطرة شاردهْ . .
ولا . . تسمعين كلاميَ إذ استحيل حديثاً من المطر الموسميّ . .

ولا تعرفين مكانة حزني إذا جئت أنشر فوق ابتسامتك الغجرية لون دموعي ووشم احتضاري المولول . . .
كيف أقيم لجسمك ـ هذا البهار الخجول . . ـ
المساجد والأبرشيات والشكن الذهبيّة واللابرنت المطل على البحر !. .

و . . أنت التي ـ قلت ـ لا تحسنين التفاهم مع تعبي ؟!
كيف أغادر خوفي وأهرب من أرقي وأساوم كل النساء على جسدي . . .
كيف أحمي لياليّ من عرق النوم عند هجوم الكوابيس . . .
يا . . مطراً رائقاً في قرارة حزني،
ويا بلداً متقناً كالندى فوق عشب المقابر . . .
يلمع ، ينشر طيباً ويحُزن . .
لكنه . . ليس يفهم حزني وخوفي . . !
ولا يستطيع احتواء بكائي
ولا . . . تعبي !!



بلاد اوجزت في .... حجرة

.. قاطرات الزمن الأزرق تستقصي عن الآثار ، تستهدي بدفء المعدن الممدود حتى الفجر ، تستعطي على كل المحطات ضباباً أو طعاماً أو ... قصيدَهْ !

عندما تنقطع القضبان في منعطفٍ ،
تخُرج من داخلها خطاً حديدياً ،
فيمتدُّ ، ويمتدُّ ... طريقاً جاهزاً للحركهْ ..
يحمل الضجة والريح وبرد الليل والمعدن والأعتدة ، الأصوات ،
صوت الذئب والموت وصمت المعركَهْ ..

ـ آه يا قاطرة النوم المسافرْ ... ـ
تقصف الريح على نافذة الضوء الوحيدهْ ،
يسقط الثلج على قبعة الجندي في النافذة الأخرى ،
يهبُّ الليل من كل الجهاتْ ،
يتوارى الضوء من نافذة الريح العنيده .

ـ ينحني تحت هبوب الكلمات البيض شاعر !ـ
القرى تهتزُّ في النوم على إيقاعها للعجلات ،

القرى في الجانب الأيسر تصحـو ، ثم تصـطفُّ على طول رصيف الناقلات !

. . . تنقل الجدران ـ إذ يساقط الطين الـذي يسترهـا ـ الموتـى إلى داخلها سراً وتغدو مقبره !

تتوالى حركات القاطرات ،
وهسيساً صار صوت العجلات
وبطيئاً صار سير الزمن المرخى . .
ركيكاً صار إيغال قطار السنة الماضية ـ اللحظة ـ في الليل ،
خلاءً صارت الأرض حواليه ،
فلا إنس ولا زرع ولا حتى خيالْ ،
وظلاماً صارت الرؤ يا وخوفاً صارت الذكرى . .
وكانت صوراً مبتكرة !
. . القطارات توارى وهجها الضوئـيُّ ،
نوماً . . صارت الأرصفة المحسنة . .
الناس تواروا من محطات السفر ،
والنواقيس التي كانت ـ خلال الصمت ـ لا تعلن إلا النوم ،
صارت منذرات بالخطرْ !
كل مقصورة حبٍّ نصلـت ألوانهـا ،
شكلها صار توابيت كبيرهْ !
ينحني من حولها صمت المطر . . .

[. . . ألا فاقرأ ،

ورتّلٍ باسم كأس السمٍّ آيات من الجسد
وغنٍّ الخوف والموتى ،
ووجه الموت باسم الواحد الصمد
ألا فاقرأ
باسم الواحد الأحد
وباسم الوجد والمدد
فإنا في زوايا الهجر لا نقوى على الجلَدِ . . .
فنحن هنا أسارى الخوف . .
منفيون في البلدِ !!]

وقطار الليل لا يسأل عنا
في المحطات الصغيره . .
آبقٌ ، منفلتٌ في القفر
يجتاز عباب الظلمة المنتصرَهْ ،
يعبر الأمطار نحو الصحو في البيد ، ونحو النوم في الأمس ،
ونحو الموت في الخوف . .
ولا تلمحه الأعين إلا صدفةً أو لمحةً مختصره !
حاملٌ في جوفه كنز الوجوه العكرَهْ ،
مضمرٌ في قلبه سراً هلامياً ،
بلاداً أوجزت في . . . حَجره !

ـ . . . أيها النوم العصّي الشكل والحب ،

أعدنا لبلاد الريح والزرع وأجساد النساء الخفـرة!
وأعدنا لثغاء الفجر ، آهات الليالي ،
لجراحات التراب العطره !ـ

[.. وامنح وادي العربات ركام النوم المترسّب منذ شهورْ ،
وتوضأ بالأزهار المنفوشة واقرأ سورة صُور ..
سبّح باسم الأم الباكية بلا دمع فوق الجثمان المنشور ..
واقرأ سورة صدر المرفأ بالدمّ الموزون يفور
يا أي .. الأشكال الواقفة بوجه الموت المقطور
ويها القاتـل اقتـل ، اقتـل .. يطلـعْ من بـين ركام الموتـى عصر النور !..]

و .. تمر قطارات الزمن الموجز ؛
قاطرة منها تترك خطيها وتضيع خلال جبال الأسود والأحمر تظهر في وادٍ ليس بذي زرع ، تجنح لصخور النبع وتغدو سيارة إسعافٍ للجرحى في ليل السنوات المهدور ،

تمتلىء نوافذها بزهور السوسن والنفنوف البريّ ،
ويحفل داخلها بالفيجة ـ تهريباً ـ، بالموسيقى ـ تسريباً ـ
وطعام وشراب .. بالشعر المنثور !
يا عصر العنفات الذرية والموت الذري ..
أبارك في فجوات دماغك عصر النور ..
باسم الشقرة والديجور

نشرع كل قصائدنا للنور
كل قلوب الناس المنفيين . .
ستغرق في النور . . !!

رأس السنة!

. . . فجأة تجتمع الأحوال والأشباه في بابي وتجتاز الحجاب الحاجز الأول والثاني وتحتلُّ المكانْ !

فوجوهٌ صورٌ دون عيونْ ،
وعيون دون وجهٍ أو جفونْ
وجسوم دون وجه ويدانْ
دون جسمٍ تمضيانْ . . !

. . غابة من أرجلٍ ، أذرعة ، من أوجه ، تيهٌ من الدهشة يا . . . للمهرجانْ !

امتلأ الرأس بأصواتٍ عجيبات ، بآهات تثير الذعر ،
صارت رئتي قاعة رقصٍ ، صار قلبي قوقعَهْ ؛
امتلأت أنفاق صدري جثثاً ملتمعَهْ . .
وتحدثتُ إلى الضجة والأدمع بالشارات والصوت وباللمس
ولكنَّ الهوا غاص وغالتني الرؤ ى المتقعهْ ؛
ازدحمت بالباب كل الأوجه الصفر ، توارت صفة الخوف ، انتهى الغزو . .

ـ افتحي قلبك يا سنّارة الحب ، اغلقي الأبواب في وجه الـرياح الأربعَهْ . .
سوّف نقضي ليلة الميلاد في حزنٍ وحيدين ،
ونمضي سهرة العام نياماً ، ثم ندعو اليأس في الصبح ونقضي يومنا الطفل . . معَهْ !! ـ

. . . كل هذا الوهج الطافح نحوي
من غضون السنوات الماطرة ،
صار يخبو لحظةً ،
يخبو قليلا
واصطخاب القاطرَهْ
وهي تمضي قرب شباكي
غدا يبدو لسمعي آتياً
من ظلمات الذاكرهْ !

ـ . . أيها الموتى الأولى في سهرة العام تفيقون ، تجنّون ابتهاجاً
تشربون اللحظات العابرَهْ ،
ما الذي أيقظكم من موتكم ،
ما الذي يفرحكم ـ في لمحةٍ ـ حتى تجنوا ،
ترقصوا بين الجسوم الهادرهْ ؟؟
. . هذه الأشباح من حولكمو . . ليست سوى قاتلـكم منتشراً في الأمكنهْ . .

ساهراً حتى صباح الموت في . . رأس السنَهْ . . .-

. . . تستمرُّ الرغبة الرعناء في نفسي بأن أدعُوَ ،

أو أُدعى إلى الحفل . .

ولكنني قبيل اللحظات الحاسمَهْ ،

أتوارى خلف نار الموقد الصامت في القلب . .

وأدعو جيش نملي ،

لالتهام السائمهْ !!

ـ . . لا تخافي آهِ يا سنّارة الساعات من أحوالي المجنونة اليوم . . .

أنا . . اليوم أمير الحزن ، شفّافٌ ، مديدٌ بين أشفاق اللظى - الأحلام ـ ساعات الصفاء المرِّ ـ

أفراح البلاد النائمهْ . . .

. . أنتِ قربي لهبي الجامح ، إيقاع أحاسيسي الوسيمات ، ابتداء الملحمهْ . .-

. . وأراني دائماً أمضي وعتم الطرقات السود يغشاني فاستسلم للّذة ،

لكنَّ عيون العربات الفارهات ، الطائشات ، الخائفات الواهمهْ ،

دائماً توقظني من غفلتي ، تطردني نحو وحول الأرصفَهْ !

وعيون الحدأات الحائمهْ ؛

منذ أن كنتُ صغيراً ،

كنتُ أخشاها كأنّ الشؤم فيها ماثل والأرغفهْ . . .

ـ . . أيها الموتى ترى منذا دعاكم هذه الليلة ؟
أنتم تسمرون الآن :
خمرٌ سلسلٌ ، ضحك وموسيقا ورقص . . .
. . خاصروا أيّاً من السمّار يغدُ شبحاً متشحاً بالأوسمَهْ . .
مرعداً بالسجن أو بالبسمات الكاذبات الجارحَهْ ،
بعد حين ، وقبيل الفجر لا بدَّ تموتون اغتيالا
مثلما متّم صباح البارحَهْ !

ـ واسمعي يا وهجي الطافح صوبي ،
عن يساري ويميني ، من عروقي . .
أنتِ نمنمت أحاسيسي في العزلة ، زيّنت أكاليلي بقبلاتك . . ، ها إني أغنيك ، اسمعي صوتي الحزينْ :

« . . لشعرك رائحة العشب بعد المطرْ ،
لثغرك طعم العرقْ ،
لصوتك بحّة لون الشفقْ . .
وجسمك تابوت نومي خلال الخطرْ . . . »

إنك الومض الذي يهطل من أغصان حبٍّ ـ ياسمينْ . . ـ
و . . أنا ما عدتُ أرتاح لهذا الصخب النافر من كل عيون الأضرحَهْ
أوْ لهذا الوهجِ الوافد من كل عيون الناس أو أحرف أشياء المكانات الوسام المرحَهْ . .

وأرانـي ـ لو تحاملـتُ على حزنـي ـ وجئـتُ الليلـةَ القصــوى . . وحيداً ،
بين جدران من الناس . .

« لماذا أنا وحدي حائمٌ بين الجسوم المشعلَهْ ؟!
باحث عن شبحٍ أو هرةٍ أو فكرة أو . . . مقصلَهْ ؟!
. . يذهب الناس إلى الليلة من دفء البيوت ،
الناس يأتون إلى الحفل هروباً أو نزوحاً أو جنوناً ،
ربما يأتون من أمن الحنان المرِّ في الدار . .
وقد يجلبهم خوف إلى الليلة ينسون بها عاماً مضى أو . . مشكلَهْ ،
وأنا أذهب ـ لو جئت ـ فألقى كل عبء المسألَهْ !! »

ـ . . فتعالَـيْ يا حقولا من شقيقيّات أحلامي القديمات
ويا مرجاً من النرجس والعشب الذي يوقظ فينا « الولدنَهْ »
وتعالي نملأ العالم في هذي الصحارى « شيطنَهْ »
نتناسى لحظةً بؤس البلاد المحزنَهْ !
نشرب الميلاد والموت فيبدو فرحاً
ـ لو بائساً ـ رأس السنَهْ !!

الزيـارة!

. . . مررتُ على داركم فابتسمتُ لمرأى الحجارة والطحلب المتسلّل
ما بينها والملابس منشورة من سنين ،
فأطرقتُ ،
لوّح لي فمها الحجريّ وهشّت سلالمها المعشبات .
فأطرقتُ ،
أنصتّ للهمسات الجدارية ، انسكبت دمعة من صنوبرة ساكنهْ ،
هممتُ ، أتمتم شيئا .

وراودني شغفي للمثول أمام السكون المهيب ،
تحركتُ في موضعي وحوّلت خطوي إلى لا مكانٍ
و . . حاولت ،
لكنني لم أبارح مكاني !
سمعت ثغاء ستارة وردٍ وراء النوافذ . .

حدّقتُ ،
كان الهواء يمزّق أثوابه ،
وكانت شجيرة سروٍ تشد جدائلها النافرات . .
وكان النهار يغرّب فوق بحيرته الآسنهْ !!

. . أقمت على حجر نافرٍ من زمانٍ ،
تمثّلتُ بعض النسائم وهي تغلفني كالحرير ،
تخيّلت سرب حمام يجيء من الغيب ثم يهاجر من شرفة نحو أخرى
و . . غنيتُ ، لم يتجاوز فمي نغمي ،
فانتبهت إلى أنني صرت في الليل مقطوعة من ظلامٍ . .
هممت بالا أغادر عاصمتي الحاضنهْ
ولكن ريحاً خماسيّة هدرت فجأة ،
أثارت عليّ غباراً بلون البكاء ،
فأغمضت عينيّ ،
صار الظلام امتلاء ؛
وجوهٌ غضارية القسمات ،
جسوم هلامية الحركات ،
وجوه بأقنعة من جميع التصاوير . . .
و . . ابتدأتْ رقصات التداخل أو خطوات التخارج ،
ما عدت أعرف هل صرت في وطن الهلوسات ،
فهذا سديم من الكائنات يطوّقني ،
أم جفاني خيالي
وغامت بعينيّ كل الرؤ ى بالبكاءْ ! !
. . صرختُ بأعلى ابتهالي ،
فما ردّ إلا الصدى !
. . الا أيها الساكنون القدامى أجيبوا النداء ،

ألا أيها المقفرون الندامى . .
أقيموا لمرتحلٍ عن جميع النساء . .
إليكم مآدب حبٍ ولا . . تتركوا عريه في العراء ! . .
. . . وهاجمني نفر من نساءٍ عليهنَّ أرديةٌ من قماش البيارق والنخلِ ،
ثم . . تناوشنني من جميع الجهات بزوبعةٍ من صراخ الكواسر .
أغمضت عينيّ في فرحٍ ،
وتهافتُّ منكسراً أتلمس شيئاً من الأرض . .
. . كان بساط التراب الملوّث بالدم والدمع
ينجرُّ من تحت كفيّ . . تمتمتُ :
ماذا تردنَ ؟
فثار صراخٌ ،
و . . أحسست بالطعنات الدفيئة تحفر في جسدي نفقاً
ودمي يترقرق في نشوةٍ ويسيل على الأرض
والأرض تشربه ثم . . تهرب ذراتها باتجاه المغيبْ !
. . لمن هذه الأرض يا طيبات الصدور ويا نيّئات الشفاه ويا خفرات العيون ويا سيدات الطيوب ؟!
وأين . . تلاشت ديار الحبيب ؟
هنا . . كان دار الغمام على بعد أمنيةٍ تتلظّى ،
وقبل ثوانٍ رأيت النوافذ والحجرات وورد الستائر والشجر المتنصّت للحزنِ . .

كيف توارى الكيان الحنانيُّ ؟
قلنَ ، أجبنَ ، ابتعدن عن المنظر المتلألىء شوقاً . .
أنا . . جئت حتى أقبّل هذا الخريف الأنيس . .
وما جئت كي أشهد الكارثهْ ! . .
أتيت لابني بعينيّ صرحاً لكل الزهور المدمّاة ، للأوجه الحانيات
على الكون . . للحب والزغب الجسديّ . .
وما جئت حتى أشاهد مهزلةً بائسة . . !

. . ودارت حواليّ دائرة الكذبات الكبيرة ذات العيون الفواضح . .
ضاقت حواليّ دائرة الأسهم المشهرات . .
و . . قالت مقنعة بينهنّ بصوت تشقق من كثرة الصمت :
قد جئتَ تفضح عري الزمان الذي نحن صنعناه من لهب العرس ،
تكشف زيف المكان الذي ضاع منا خلال الرياح السموم . .

فلن تنجونَّ ،
اذن تُقتلنَّ ،
اذن تحُرقنَّ ،
ونغدو أمثولة للغراس التي نبتت في تراب النصاعة . .
أنت نبات غريب له ثمرَ ـ لو تفتّح ـ سمٌّ ،

ـ وضاقت حواليّ ألسنة الدائرهْ ،
رأيت الحراب تقرّب مني ،
وفي جانب الحنجرهْ ،

تلقيت أول طعنهْ ،
وأخرى تجاوزت الحلق ،
مرت إلى العين ، مزّقت الأذن الداخلية . .
و . . انفجرت ضحكتي . .
وتهاويت في فرحٍ فوق أجسادهنَّ ،
أمزق أثوابهن ، وأنهش من لحمهنّ الطريّ و . .
أصرخ ، أصرخ في . . نشوةٍ ،
. . كان وجه الصباح النجيب يحاولني والنسائم تمرق من كوة الخوف نحو سريري ،
ففتّحت عينيّ ،
لا . . يا ديار الأحبة ، لا بد من وجهها يتوضح في شرفةٍ .
ولا بد من جسمها يتفتح في قبلةٍ .
ولا بد من أن تلوح ولو . . من بعيدٍ ،
فإني ظامٍ إلى حبها ،
وجهها ، صوتها ، جسمها . .
وإني ظامٍ إلى ضمها قبل أن يدهم الليل ،
أن تدهم الخيل
أن أتهاوى قريباً
إلى . . . الهاويَهْ ! !



. . . يا أيتها المخلوقات البحريّة ، أيتها الفقمات الماجنة . .
أحييك من اليابسة ،
اليابسة ،
اليابسة ،
وأصرخ في سمعك ، ردّي ؛
إني أصرخ في سمعك بالقهر الممدود على طول القارّات السبع ،
لأعلمَ أهل الماء بأن الدنيا يابسةٌ ، يابسة ،
وبأن الأحوال الجوية قاتلةٌ ،
والطيران هنا ممنوع والأجنحة جميعاً قصت مع حبل السرّة . !
والأطوال المائلة ، الأفراحِ النافرة . . تُقلَّم يومياً
كي تصبح نار البعد مهذّبة أو . . .
آهٍ يا أيتها الخبيّات المظلمة ويا أيتها الماموتات المنقرضَهْ . .
يا أيتها الغيلان الفاقعة ويا أيتها الدلفينات المحتربَهْ !
لم يبق هنا في البرِّ سوى الحيوانات الهاربة الى النيران المضطربَهْ . .
والريح تحاور أسطحة النوم وتهرب في كل دروب الحب المعترضَهْ . .

. . . وحوافُّ الرغبة شائكة وقناديل البـرِّ تراوغ وجـه الموت قبيل الفجر وتتجهُ قوافلها صوب البحر الميّت . .

والنيران تضاء على كل مفارق هذا العالم حتى تطرد منـه الأرواح الشرّيرَهْ !

لكن الأرواح تداهم كل الأمكنة
وتطفيء أعشاب الضوء المنشورَهْ !
. . الأرواح ـ الآجرُّ ، الأرواح ، النفط ، الأرواح المسعورَهْ !

الأرواح ـ الأشبـاح الغـادرة ، الداهمـة ، السارقـة ، الخاطفـة ، المغتالة في الليل وفي وضح الشمس . .

و . . يشعل أطفال الأحياء قناديل البحر على مدخل كل الحارات المنسية ،

يشعل بعض رجال الصيد البرِّ مناراتٍ للأطيار الضالَّة والخرفـان الضائعة وللغزلان البائدة . .

فتسعى الأرواح الباردة من الفجر مقنّعة بالبسمة أو بالماء الدمـوي وبالجلد البشريِّ . .

وتلبس طاقيات الإخفاء ، وتسبقها أنواع كلاب بارعة في الـرقص وشم الأطراف المقطوعة . .

تسبقها أبواق الحرب وموسيقا النوم ، العربات الملكية ، أطيار من ورق التين ، سيوف لامعةٌ تتخاطف حول الأوجه ، تتبعهـا العربـات

الهادئة ، المغلقة ، المدهونة بالحدقات . .

ورتل من أسماك القرش الطافية على الرمل . . فتخفت كل الأصوات ، تَهافتُ كل الحركات وتعتم ناصية الأفق . . ويبدو للخلق لسان الشمس المقصوص ،

أصابعها المبتورَهْ !

ـ . . . ويراود ذئبُ إسماعيل الساكن في قعر الجُبِّ ، يزيّن في عينيه الدنيا السانحة .

فيرفض إسماعيلُ !

يعيد الذئب الأحلام مزخرفةً بالفستق والذهب البحريِّ . .

يصرّ الشاعر إسماعيلُ على الرفض ،

ويصرخ من أعلى الذئبُ المبعوث ، المَهزول ، الواثق ،

طاغية أعالي البحر ، صديق الأسماك الطيّارة ، محبوب المرجان ،

يصيح بصوت مبحوح :

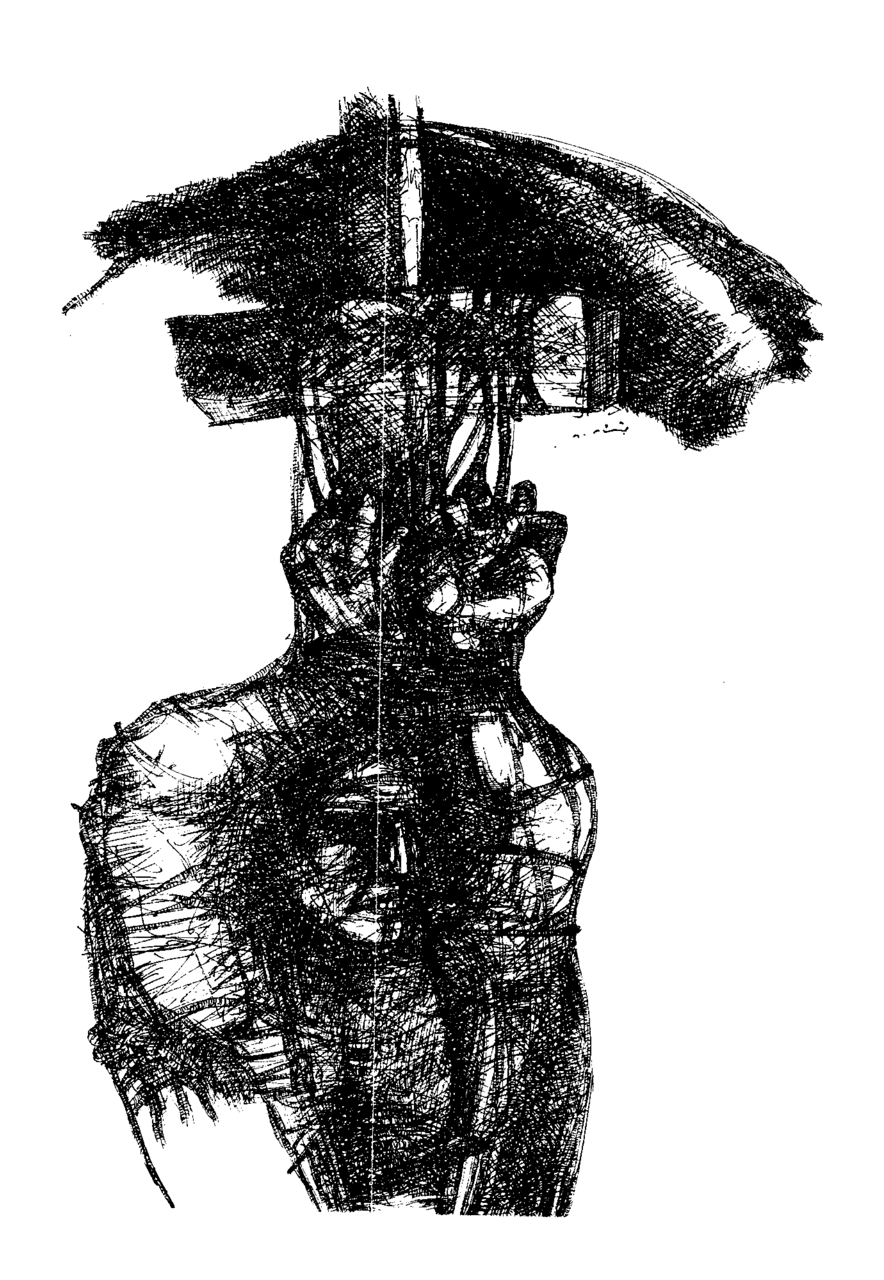
يا . . إسماعيلُ ، آهجر هذا الجب الخانق واخرج للسطح الأخضر والسنوات الشقراء وسافر في الأدغال اللفّاء ؛ قطوف الدنيا دانيةٌ ! و . .

يدمدم من عتمته إسماعيل : اتركني يا أيُّ ، آبتعدِ الآن عن الفوّهة وإلا أرسلت عليك جنوداً لا تلمح أوجههم ؛ من زُمَرِ النحل وأنواع الأطيار الحاملة حجارة عصر يولد ـ من سجّيل ، فراشاً يخطف باللون الأبصار . .

آتركني يا أيُّ وفتّش عن جبٍّ آخرَ ، عن بئر ممتلىءٍ عافيةً ، نفطاً وعقارب مذعورَهْ . . . . ـ

. . . تنطلق الفقمات إلى اليابسة ترافقها الأرواح الشريرَهْ ! يمضي الموكب : في أوله عربات الورد ، تماثيل القطن الزاهية ، الموسيقا ، الأبواق المنذرة ، الطاووسات وأسماك القرش . . .

فيبدو الأفق وقد حرّقَت النيران حوافَّ الرغبة فيه ،
ويشهد كل الخلق الشمس بأسنانٍ لبنيَّهْ ،
ضاحكةً ومحل لسان الشمس المقصوص نما قيثار ذو أوتارٍ ذهبيَّهْ
وأصابعها أغصان الوردِ ـ الأفق احمرَّ ، احمرَّ ، احمرَّ . . ـ
ملامح إسماعيل على وجه الشمس ؛
العينان تضيئان ، الأرواح تحُولُ إلى أشكال رمليَّهْ ،
المشهد يلمع ، عينا إسماعيل تحوّل كل الأشياء إلى أجسام نورانيَّهْ . . . .



احراق، احراق... اشراق!

. . . أَحْزَنُ عينيك وأنتِ تغيبين عن الصحو خلالي ،
تنقلبين إلى أنثى نمِرَهْ !
وأهاجر فيك إلى برٍّ أمانٍ
من صوت النار ونار الكلمات الخطرَهْ . .
وأجمّع حولي كل متاع الدنيا :
عطركِ ، دفأك ، لون ثيابك ، وهج إهابك ،
لجّة صوتك ، شكل الحب . .
وأمضي نحوك . . أعمى يبحث عن عينَيْنْ !
. . . أسكن قرب قميصك ،
أجعل فضلةَ منديلك خيمة حزنيْ ،
أدفيء خوفي بالشفتينْ . .
. . خوفي يتسرّب عبرك ،
خوفك ينعشني فأداوم ما بين ذراعيك وصدرك
ومغالبة الأدمع أو كتم الأنفاس من اللهفة أو خوف عيون العتمة أو خطوات الحراس الليلينْ !

يا دافئةً قلبي في البرد الداهم . .

أين يهاجر إلا فيك الشاعر مقصوص الجنحَينْ ؟!
فالأفق بحار ظلام والطرق شرايينٌ قانيةٌ
تتوجّه نحو القلب ، تشدُّ على عضلات الروح
فتوشك تخنقها !
ومفارق كل شوارع هذا العالم تحميها الحدقات الحمراء
وفوّهة معتمة تحدق من كل بقاع الظلِّ
إذا ليّل فجر البلد المقهورْ ،
ويداكِ ـ ولو غدتا حولي سوراً ورديّاً ـ
ليس بوسعهما أن تمتدّا ، فتصيرا الشارع والمقهى
والبيت وواجهة البلّورْ . .
إذ آتي نحوك تعترض طريقي حدأات فاجئةٌ ،
تدخل بين إهابي وإهابك ولولةٌ وعويل
ودماء خافية وروائح فاجعةٌ و . . .
. . أحوّلُ دربي عن شرفاتك نحو قرارك ،
أمكثُ في العتمة مبتعداً ما شاء الدفء الراهن
عن أصوات الرهبة . .
لكني ، ما أن أفصل نومينا حتى أكتشف بأني صرت
أراوح في قلب الجمهورْ ؛
أُرفَعُ فوق السدَّةِ ،
أرفع صوتي ،
أصرخ ، أجأر بالحقد ،

تثور الأمواج ويصطخب الخلق بنار الغضب الموتورْ . .
تتواثب من قلب الديجورْ ؛
حدأات غربان ، خفّاشاتْ ،
و . . يموج العالم بالكلماتْ ،
تهتزُّ الأرض على وقع الخطواتْ . . .

* * *

. . نارٌ ، موسيقا فاقعةٌ ، موسيقا هاذية ، هائجة ، هائلةٌ . . نارٌ ، موسيقا هازجة ، هابطة ، صاعدة ، موسيقا ، نارٌ ، موسيقا نازفة ،

موج يتلاطم ، موسيقا ، نار ودماء وصراخ وهتاف ،
كلماتٌ غازية ، هاذية ، هادرة ، هازجة . .
موجٌ ، موسيقا ودماء ، نار ، أجسام ، أذرعة ، أسلحة ، طلقات ، كلمات ، نار ودخان وبيوت ، أشجار ، ماء ، شمس حرٌّ ، بردٌ ، دمدمة ، قعقعة ، فرقعة ، زمجرة ، تفجير ، تدمير ، إحراق ، إشراقٌ ، إشراقْ . . !

ـ . . . وحَدَّثْتِني عن ربيع البنفسج ،
والأرضُ خضراء ، خضراء والموسم المرتجى . .
عظيم لهذي السنَهْ ؛
وحدثتني عن خواء الليالي بغيري
وعن أثر القبلة المعلنَهْ . .
وحدثتني عن صباح الهناءة والربوات المنغمة العشب

والطرق الجبلية والنبع والرغبات الطليقة في الفجر
والنوم تحت الدوالي . . وعن عبث الولدنَهْ !
وقلتِ : تعال إلينا مع العشب والشمس والنسمات الدفيئة ،
هُبَّ إلينا مع الزقزقات الصبيّة . .
تَلْقَ عشيرتك السوسنَهْ . . .
وقلت : ـ
. . . إشراق ، إضراب ، إحراق ،
تطويق ، تعقيل ، توقيفٌ ، إشراقْ . .
إخمادٌ ، إسكاتٌ ،
تجويع ، ترويع . .
إغراق ، إحراق ، إشراق ،
إشراق ،
إشراقْ ! !

و... غرقت في بحر النفط!

. . . أيها المارق من كفيْ إلى كفيْ بلا صوت ولا وهج شرار

أنت من طينٍ ونارِ

أنت سمع الأرض في عزِّ صباها ،

أنت أيقونة موتٍ في قفاري !

أنت إيقاع الربيع المرِّ في هذي البراري . .

أنت هذا الوجه ، هذي القسمات السود

في كل المرايا ،

أنت صوت في الحكايا ،

وأنا وجهك مجروحاً وموطوءاً ومغسولاً بدمع الأمهات الفاقدات

النسغ من أثدائهنَّ ، المالئات العالم المنكوب بالندب . .

أنا صوت الذين انتهكت أحلامهم منذ الطفولَهْ !

وأنا أصرخ في سمع الحجارَهْ ،

أملأ العالم بالشعر البكائيِّ وبالشعر ـ التحدي . . .

. . أيها الموتور من كل فتور العالم الباهت ،

يا هذا الهروب الدائم النازف يا . . . صوت البشارَهْ .

يا رنين الوجع الموغل في أعماقنا . .
هاتِ ارتجل حزناً وآثاماً ،
أقم هيكل نارٍ للبطولَهْ . .
شُدَّني من جفنِ عينيْ خارج المستنقع الأمنيّ
خذني نحو قلب النار والمستقبل المطمور بالوحل
لعلي أنتشي بالموت في دغل النهارات الجديدَهْ . .
فأنا أخشى انتهائي داخل الصمت ، مماتي في مفـازات البكاءِ
آلشوق يمضي بي بعيداً نحو آفاق المنارات السعيدَهْ . .
وأنا ماضٍ بلا خوفٍ ، رشيقاً كرياح الفجر
لكني في قلب بكاء الناس ، أحزان جميع الفقراءْ
كل قهر البؤ ساءْ ! . .
. . والتقى وجهك بي ذات مساءْ ؟
كان وجهاً طازجاً ، شيئاً من القشدة ممزوجاً بماء الورد ،
فجراً أنثوياً ، طبقاً من لهب رهوٍ . . .
و . . راوحت بعينيّ على نضرته قلتَ :
آتئدْ ، هذا أنا صبحك ، إيمانك ، أوهامك ،
أفراحك إن شئت البكاءْ !
وتلبّثتُ بلا صوتٍ ، حبست النَّفَسَ اللاهث
قلتُ : آلنار من حوليَ ، كل الريح والساعات ضدّي
كيف ؛ من أين انبثقتِ ؟ . انتشليني من أحابيل الشقاءْ !
و . . تبسّمتِ ، تخابثتِ بعينيك ،

بدا ليْ صوتك المشبع بالخمرة شهراً من ضياءْ . .
وابتدا موسم أفراح الفراشات بقلبي لحظةً ،
ثم . . انطفا في الابتداءْ ! !
قلتِ : لن أبقى هنا حتى الشتاء !
صوتَ من أهوى يناديني من البعد
ألبّي بعد حين صوته العالي النداءْ . . .

قلـتُ : صوت البحـر ، صوت النفـط ، صوت الموت لا صوت
حبيبٍ .
و . . . افترقنا وأنا عينيك على صفحة عمري ،
طفلة ممشوقة الألوان ، موسيقا من النرجس والفل . .
وظلت قسمات الوجه لا تبرح عينيَّ و . . راحت ؛
قيل في أرض « الخليج » الرحب لاقت حبها
وابتسمت للشمس والطقس الغباريّ ،
أحبت لمسة الشاطيء في كل الصباحات لكعبيها ،
وقيل انتبذت ركناً صغيراً قربه
تقرأ أو تكتب للموج أمانيها :
ويوماً ، نسيت خشيتها ،
نامت على صوت المياهْ ،
غفلت عن حرصها ـ والبحر غدّار له جزر ومدٌّ ـ
خطف الجزر الفتاهْ
امواجه أعضاءها الملساء

والرب الإله

قد تخلّ قاسياً عنها . . . !

. . . أنا أصرخ في سمع الحجارَهْ

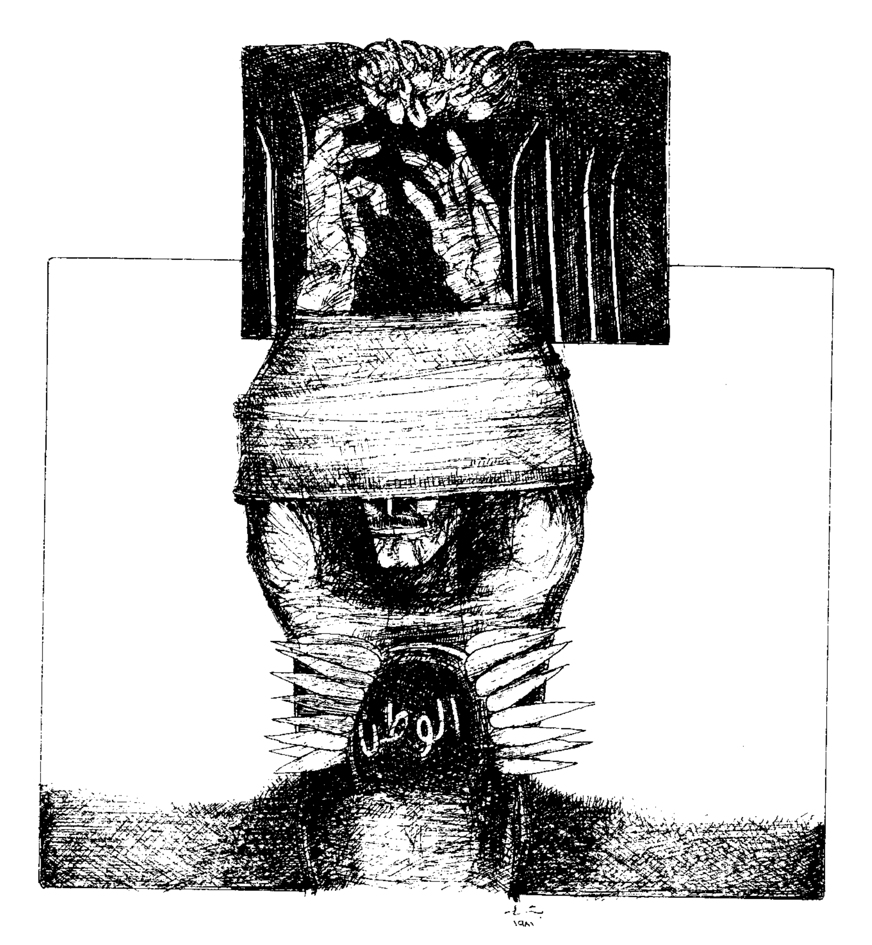
إنني أزعق من أعماق قهري في مرارَهْ :

أيها المارق من قلبي إلى كفّي ومن عيني إلى صدري

طغى النفط على حبي ، تفشّى القاتل في خضرة عينيها وفي قشدة خديها وفي أرض بلادي

لم أجد قبراً لها ،

لم أجد قبراً لها واحسرتاه ! !



الوطن
ناجي
١٩٨١

صلاة لزمنٍ يجيء

. . . يا طيور المساء الوسيمِ ،
تناديْ وجيئي إلى حفلةٍ لا أقيم سواها ،
على شرفة السواد الأخيرِ ؛
فمائدتي أشرعت بين ضلعين من حديد المسافات ،
متخمة فوقها القصائد والقصعة الدموية . .
جمع من الأصدقاء يحيطون بالخوف من حولها
وينتسبون إلى الفقراء ويحتملون شقاء الخلائق ،
يفترعون كئوساً وأشربةً مرّةً . .
ويغنّون للحنان النمير
. . ظلٌّ هذا المساء يفيّئنيْ بالدموع ! . .
واشراقةُ الشجر المتهدّل فوق التلال
تثير بقلبي الحنين إلى ومضات الصخور !
أنا . . أيها الأصدقاء تلبّدتُ بالكلمات ـ الزَهورِ . .
تعوّدت أن أتنقّى من الومضات المثيرة
في حضرة الأفعوان الأمير !
وهذا دمي للحفاة وهذا يراعيَ لمملكة النحل

هذا خطابي إليكم فلا تسمعوني ! !
ـ أنا الرجل المستباحة أشعاره ،
الملوّن بالخوف والموت والنوم والدوخان العنيدِ
أنا شهوة للدمار ، شهيد السُّعار الأكيدِ . . .
أنا دمّل الحقد والغضب المتنامي خلال الحصار البليدِ . .
وأقترف الشوف عن ألف ميلٍ ؛
أرى الوطن المتبحّر في القهر يغرق ، يوشك أن ينتهي
في القرار العتيم !
أرى الوطن ـ القهر يغدو سلافة أرضٍ ، بقايا بلادٍ ، ترسّبَ ملجأ
يتم عقيم !
دعوني أرى وطني ، وطني لم يعد وطني ،
صرت من وطن آخر يتنامى بقلبي ،
وطن آخر ينطفي في دمائي
دعوني أرى وطناً سافراً ، وطناً عبثاً ،
بلداً عبثاً ، أمة عبثاً ، جنة دون جدوى ! . .
فقد غدت الأرض مستنقعاً والبلاد متاخمة للقبورِ ! !
دعوني أفتش عن أمة فقدت اصلها وبلاد فقدت عرضها وبحارٍ بلا
شاطيءٍ
دعوني أوازن جسمي وإسمي
على حافة المطر المستجيرِ !
لعل حقول الكرامة تصرف من خضرة الزرع

حلم الفقير الفقير . .
و . . أبني لكم يا رفاق هنا
في خلايا الدماغ ! مضافة بدوٍ
وأشرع فيها لقصور الهواء المغير
« الدلال » وآنيةَ « الهال » والحسراتِ التي
تملأ السهل من حولها ،
وأغني لكم على وتر الموت والحزن « بوذيَّةً »
تعلن الدمع أو . . . لا فأنتم بأحزانكم عارفون
واني على فهمها مستثار وفي كبدي
صبوة للنفور . . !
. . . كفاكم ، كفانيَ ـ أنّا غريبان في جفوة
الأرض ، أنّا شريدان في وهدة الأهل ،
والشَّملُ ـ رغم النواح ـ شتيتٌ ،
ونبحث عن وطنٍ من بكاءٍ !
بلادٍ تطل مناديلَ داميةً ،
تطل إذا نضب العمر بئراً من الرغبات . .
و . . نبكي معاً يا رفاقُ ،
نصلي معاً لزمان مضى أو زمان يجيءُ
ولا كَفَنٌ يستجير بنا أو يخبئنا ،
آهِ ، ما أصعب الوطن المستباح
وما أتعس الموت بين القبورِ ! !

"الخماسين!"

. . . هأنذا في الضفة الثانيَهْ ؛
بلغت من عمر اللظى والسنا والحب
ما لم يبلغِ الطاغيَهْ . .
خمسون مرَّت مُرَّةً ، حلوةً
لكنها . . مرّت وفي ثانيَهْ !
. . الزهو موسيقا ، الهـوى دوخـةٌ ، نارٌ ، ضبابٌ ، جُمَـلٌ سُكَّرٌ
طينٌ ، دلافين . .
ألا يا رؤ ى طيري ، آحفري في رئتي ساقيَهْ !
وحدي وقد مرَّتْ على موقعي
ريحٌ وأمطار وما
خبّأ في أعبابه الداهيَهْ . . !
(. . . وكل ابنة للحبر لا تنفع ، كل أيقونة مسروقة تجلب الحظ . .
كل النساءات عشاءات ملوّنة .
آه ، يا جسد الحبيبة كم يحلو لي السهر خلالك والموت فيك والبعث
تحت وميضك المطري ! . .)
و . . تأخذني غفوةٌ فأرى في منامي المياه القديمة تنفر من كل شـر

خلال الفلاة ومن ثغرة في جدار بكائي .
أرى سفناً عاكفاتٍ على الخوف . .
يدفئنهُ بالمرايا ويسحبن من خلفهنَّ صبايا بعمر الشقاءْ
أرى صوراً بالهباب تُطَوَّحُ في الأفق للشاعر المتنمّرِ . .
تحملها الريح نحو الشتاءْ . .
و . . تأخذني في صحوة فإذا كل شيء قديم ،
وكل المفاتن منشورة فوق ماء الجداول
والماء أسود لا يعكس النهنَههْ !
وكل النباتات يابسة والعيون تراها وتحبس أدمعها
للخريف البعيد ،
وفي الجوِّ زوبعة ، قهقهه . .
. . . ألا يا حصون السنين الطويلاتِ
هيّا أَعدْنَ إليَّ الكلام الذي ضاع في الليلِ . .
هأنذا مرةً ثانيَهْ
أقابل وجهي فما أَنكر القسمات الحزينَةَ
أعرفه بالغضون وبالبسمة الباليَهْ !
(. . . موتاً تموتين أيتها الغدة القريبة من القلب ،
تفاحةً تصيرين أو سنبلةً تتشامخ على رئتي اليمنى ،
وعند حدود الحجاب المفتوح تقيمين لي حجرةً من الأوبئة
و . . لعلَّ كل خلية من الموسيقا المترشحة قربك ستكون مواطنةً تملأ
شوارع جسدي بالصراخ . . !)

.. وأقيم الليالي الملاح وفرحة يوم وحيد
أحصّنه بالحجارة والطين ،
ثم أسيّج نافورة الوجد ـ حيث تقيم الشرارات ـ
بالكلمات العقيم ..
أسبّح للجسد المتوهج كلَّ عشيٍّ ..
وأترك كل الليالي لغيري إلى آخر الدهر ....
... إن مرارة طعم الخلود تؤ رّقني ... فخذوها ،
أنا ، هذه الكأس ترعبني .. أبعدها ..!
جسدي اليوم حزينْ ،
جسدي أكثر حزناً من ربابَهْ ،
جسدي يبكي وما .. ما من مهابَهْ !
وأنا اليوم سجينْ
في ضبابَهْ ....

* * *

« .. خمسون مرَّت فيا للموت كيف ، متى ؟
وأشهرٌ تتلوّى تحت أعصابي ،
وبي شعور بأن الأمس كان هنا ،
من لحظةٍ وتوارى خلف أبوابِ !! »

(.. أعيذك من كآباتي الصيفية ، أبعد عنك حبات الحصرم اليابسة في فمي .. ويداك تلوذان بصدري ثم تتباعدان وتبكيان

وتتراخيان عند حدود موتي الواضحة !!)

.. جمالك يدخلني في متاهات أحلاميَ البائدَهْ ،
أغيبُ سنين من الوهج تحت ثنيّة إبطك ،
ثم أعوم على السطح في لحظة واحدَهْ !
و .. تأخذني رهبة وأنا عاقدٌ للصلاة ذراعيَّ ،
فأمكث دهراً وبضع دقائق في البسملَهْ ؛
حلفت ، وقد هذّبتني « الخماسين » ألا أتابع هذا الطواف المريع بجسمك ..

لكنَّ حباً قطعتُ شرايينه
وأحلف ، أحلف أن .. أكملَهْ ...
(.. هذا الصراع مع الدم الهرم ، هذه الصرعة التي أهدتها لنا الشمس ؛ لا بد من نولان الآخرة ، لا بد من لقاء الحزمة الحمراء بالجراح الضاحكة .

وتعرفين إلى أيّ حدٍّ ، إلى أيّ نهرٍ ، إلى أيّ شطٍ تصل عيدان القنّب لبائسة !)

و .. لكنني الآن ما عدت أملأ قلبي وعينيَّ بالمسألَهْ
تخلّيت عن نزواتي الصغيرات قبل انتهائيْ ،
وأفلتُّ طير الخرافة من سجنهِ ،
أقيم على ظهر حوتٍ رحيبٍ ،

وأعطي لمن سوف يأتي
مفاتيح أسرار تلك السحابة ؛
وهي . . . تراوِح في الأفق ردحاً ،
ولكنها . . مقبلَهْ . . . .



. . . يجلون عن الغربة والشمس المطلقة ونيران الليل . .
ويتجهون إلى الغربَهْ !
كلٌّ يحتمل على كتفيه متاع الذكرى والحزن الذابل
والسنوات اليابسة ويمضي وسنانَ . .
وقد ترك على الريح البرية . . قلبَهْ !
. . الرحلة تبتديء الآن من المنفى نحو المنفى ،
والمنفى يبدأ من بين ذراعي أمٍّ الراحل والغربَهْ :
ـ ما أطول كل الطرقات إليها . . . ـ
صارت مأوىً مغتسلا بالدمع وبالكلمات . .
لكنّ الخطوات الأولى صعبهْ ،
وأواخرها أيضاً صعبه !
و. . المنفى يفتح للآتين من الطرقات المهجورة قبر ذراعيهِ
فيصيرون ركاماً إنسانيّاً مصهوراً فيهِ!

ـ . . آخر بادرة من جسدي بقيت بين العين وبين القبر الأبويّ . .

وسلافة تَعبي لم تثمر غير وسيلة هذي الرحلَهْ ؛

عيناك . . تنادت كل حنـاياي لأسرق دمعهما . . وبـريق الخـوف عليّ ،

كان الزوّادة والإيمان بجدوى أو لا جدوى العالم . . ـ

. . . صاروا عند مشارف غايتهم ؛

. . تبدأ خطواتهمُ بتلمّس خبز المنفى ، ثمر الحـب المتناثـر في كل مكانْ !

ـ طعم الخبز مرير ، وجه الحب جبان ! ـ

كل الطرقات سوادٌ دبقٌ والأفق جدار حجريّ ،

كل الأشجار صفيح والأوجه من خشب مضغوطٍ

والصوت بكاء مطويّ !

والماء قراح عبّيء في أكياسٍ وزجاجات من ورقٍ مكويّ . .

ـ . . يا وجه صديق طفولتي المترسّب في تلك التربة

ماذا أبعدك عن الركب المخدوعْ ؟

ها إني ألمحـك الآن على صدر الأم ووجهـك ممتصٌّ من دمـه . . وتحاول كفّاك الامساك بذيلِ الريحْ ،

وأراك «تُدَمُّ» خلال التربة كالرمح المجروحْ

وأرى بعدك كل أزقة غربتنا خالية إلا من طفلٍ مسلول أو بنت كاسـدة أو شيخ مهتـريء أو أمّ تنظـر للأفـق ، تكفـكف نظرتهـا و . . تنوحْ ! ـ

. . . آعطونا كأس هواء أو ملعقةً من زيت الزيتونْ

« حنّوا يا ناس علينا » برغيفٍ أسود أو حفنة تينْ !

. . . وتمرّ السابلة بجمع الفلاحين المغتربينْ ،
يتضاحك بعض ويدير الآخر نظرته عنهم ويباعد عن مجراهم طفلته في خوفٍ ،
ويشير إليهم شرطيٌّ بنصوص القانونْ !
يمشون على الأرصفة الحامية ويمشون ويمشونْ ،
أياماً ، سنواتٍ يمشونَ ، يروحون ، يجيئونْ . .
. . . وتفرّق شملهمُ ،
صاروا يتلاقون مصادفةً ؛
يعرف بعضهُم بعضاً ،
والبعض تناسوا : من غير سلام يمضونْ ! !
بعضٌ قد غيّر ألبسة البرية ، .
والبعض يغيّر سحنته . . .
. . صاروا أطياراً ضائعة في عاصفةٍ . .
ـ . . يا أمي ،
وجهك يحضرني أحياناً ،
فيباكيني وأحاول تبديد معالمه ،
محوَ دموع الحزن عن العينينْ
فيكلؤني بحنانٍ ويدبُّ معي في الظلمة
متّكئاً تحت المطر على غصنٍ من زيتونة بيت أبي . .
و . . تغنين الكلمات البائتة على رأسي لأنام ! ـ
. . . وينامون على الأرصفة الباردة ،

يقيمون مآتمهم في ظل المئذنة المدنيةِ ،
أعراس تعاستهم تحت الشجر العاقرِ ،
يبكون على الشرفات المهجورة للجبل الأجردِ ،
أو . . يتداعون ليحكي كلٌّ منهم قصته للآخر . . . .
ـ يا . . أمَّ صديقي الراحل ،
لن يرجع طفلك قبل الستّينْ ؛
إبنك صار شريداً في صحراء المدن ،
تملّكه حب فتاة في الخمسينْ !
صار نديماً للتجار ، خديناً للجدران المحفور عليها صورة جنـديّ يقتـل جنـديّاً ، صوفيٌّ « يلحـق » صوفيّاً ، وتعـاوره الجـوع الفاضـل والخوف القاتل والحب الناغل . .

صار ابنك سمساراً ، عبداً في قاعات الرقصِ
. . . حزيناً حزناً عربياً !
يبكي ما طال الليلُ عليهِ !
يتذكر حجرك والتين اليابس والزيتون الأخضر لكنْ :
لا تطرف عيناه لو لاحت صورتك وصورة إخوته في المرآة .
إبنك . . . في عزِّ الغربة مات !! ـ
. . . خطوات المنفيين عن الدار المنفية والمغتربَهْ ،
صارت تتلاقى بالصوت مصادفةً !
يشعرها رجع صداها بين حجارة أقبية البرد المحتربَهْ :
ان الناس همُ الناس وما هُمْ بالناس ،

تغيّر أكثرهم حتى صار لبعض الأوجه أقنعة ،
جلد الحرباوات . .
وبعضٌ صار له قلب من مطّاطٍ ولسان من خشبٍ ، عينان من الزئبق . .
لكنَّ . . كثيرين يظلون طيوراً ضائعة في معمعة الإسمنت ، صفيح الشجر ، حجارة جدران الآفاق
. . تتلاقى أصداء خطاهم في صمت الليل . . فتبدو واجفةً حيرى
تبحث عن لمعة عينٍ برقيَّهْ ،
منبئة عن رائحة الزعتر أو لون الزيتونْ ؛
معلنة عن جوع يتأرّث أو خوف يتوثّق ،
وحكايا خائبةٍ وشجون وشجونْ . .
. . لا عمل ولا قلباً يخفق معهم ما بين الأبنية الشاهقة
ولا في ظل المئذنة . . ولا حتى في الأقبية !
يسيرونْ ،
فيبدون تماثيل من القشّ وفزّاعات من طينْ . .
تشملهم في المقهى والشارع وحشة خيبتهم ونفور الناس
وتبدو صورة رحلتهم ماثلة والدرب طويلاً كان ، عثيراً كان . .
لم يتخلَّ الجوع الحاكم عنهم لا في البدء ولا في الدرب ،
وظلَّ قوياً مفترساً في كل مكانْ . .
ـ . . يا ثوب أبي المشنوق وراء الباب بهيبته ورشاش الدم والطين على الياقة . .

يا . . باب البيت المتأوّه ما هبت ريحٌ أو ما دخلت أو خرجت أمي . .

يا وجه أبي ،

هأنذا معترف أني ما عدت تذكّرت القسمات النسريةَ والصوت . . ولا رائحة الخبز التنّوري ولا ، لا . . . شيء ! ـ

. . . تتنادى أصداء خطاهم ، يجتمعونْ ؛

الجوع البادي في الأوجه والغضب النافر في الأعين

تتلاقى القسمات المقهورَهْ ،

تتعارف بالنظرات وبالحركات المبتورَهْ ،

تتصافح أيديهم متعاهدة موتورهْ ،

ترتفع الأصوات وتنطلق الكلمات وتلتفت الأعين في حذرٍ مكتومْ ،

تتعالى زعقات الصفارات وتسمع قعقعة الأحذية

وينقضُّ على الجمع المغبّر « الحرس الأهلي »

تدبُّ الفوضى ؛

تسمع صيحات الوجع وصرخات الغضب . .

وفي الجوّ تصالبُ لمعات الأعين برقيَّهْ !

(. . خبزاً ، أَمْنَاً ، أمناً خبزاً ، أمناً ، أمناً أمناً ، خبزاً . . . حريَّهْ . .)

ـ . . يا ورق الصفصاف الحاني فوق الساقية

ويا خبز التنّور الساخن . .

يا وجه الأم المحمرِّ أمام النار ، المصفّر أمام غِياب الأبناءْ ،
تعالى الفقر الآمر والناهي . . ما بين الغربة والغربة
والمنفى والمنفى والنسمات الحرة في البريَّهْ . . . ـ
. . . . يحتشد الجمع على التلّة في الضاحية وترتفع القبضات مزمجرةً ؛
يتدفّق حشد الأحلام البشريَّهْ . .
يصخبُ ،
يزبدُ ،
يهدرُ ؛
ترتعد الأرض على وقع الأقدام الحافية ،
وتهتزُّ الجدران المتقنة الصنع ،
تميد الجدران المزدانة بالصور وبالأوسمة
وبالأسياف ـ الزينة !
تخلو الطرقات من السابلة !
تجفّ الساحات من الناس المغبّرة أوجههم ،
يمتليء الجو المطبق بهدير الآلاتْ ،
تزدحم مداخل كل الساحاتْ
بفيض الخُوذ ولمع الأسلحة ،
تجيء من الأطراف الأخرى بعض فروع السيل الأزرق ،
الصرخات تلعلع في الجو بعيداً ،

أصوات الأسلحة تُهيَّأ ،
يصل السيل الأزرق للطرف الأول للساحة ،
يتهيّأ صف الخوذ على الطرق الثاني ،
و . . عيارٌ ناريٌّ شقَّ الصمت النسبيّ ؛
عيارٌ آخرُ ،
ثانٍ ، ثالث . .
. . زخّات رصاص في الجو . .
و . . يبقى السيل الأزرق يتقدّم في بطءٍ نحو صميم الساحة حيث يقوم التمثال الحجريّ لذكرى الحريَّهْ !
والقبضات المرفوعة تهتزُّ كأشجار في عاصفةٍ
زخّات رصاص في الأرض ،
هدير هتافات و . . رصاص في الأرض
سلاح يشهر ، تهديدٌ ،
صرخات ،
زخات رصاص في الأجسام ؛
صراخ ،
نار ،
قدر يزحف ،
يزحف ،
آلاف الخوذ اختلطت
برؤوس عارية وزنود مرفوعَهْ ،

قتلٌ ، صرخات ، أنّاتٌ ، آهات تنبع من إسفلت الساحَهْ . .
يتراجع دفق البشر
يسود الصمت الموحش شيئاً ، شيئاً ،
وهدوء مذبوح يتراخى فوق الأرض السوداء ، الحمراء ، الزرقاء ،
الحمراءْ . .
ـ قبّرة تزقو في العتمة مثل فراشة حقلٍ بيضاءْ . .ـ
يقبل صمت الظلمَهْ ،
ـ لا قمر ولا نجمَهْ ! ـ
الليل يرين على المشهد في كل جلال الموت
وهيبة سيل الفقراءْ . .
الأرض انقلبت حمراء . .
و . . . المنفى يحبل بالأضواءْ . . . .

الفهرس

بعيداً في الصمت
قريباً في النسيان

قد تضيق العبارةُ
لكنّ قهوته في الضحى المشرئبّ
افتتاحٌ
وفتحٌ ،
وقد يستقي النار من قطع الثلج في الكأسِ
او يرتقي السحب البيض من تبغٍ اسودٍ
قد ينام . . . ولكن مع الفجرِ
معتنقاً حلماً للفتوةِ ،
قد يقذع القول
لكنّ كفيه غصنانِ

. . . .
. . . .
. . . .

هذا الأمير الدمشقيّ
من رابهُ ؟
من تسوّرَ اهدابهُ ؟
وتصوّرَهُ ،
كي تضيق العبارةْ . . .

سعدي يوس

الثمن ٨ ليرات لبنانية أو ما يعادلها